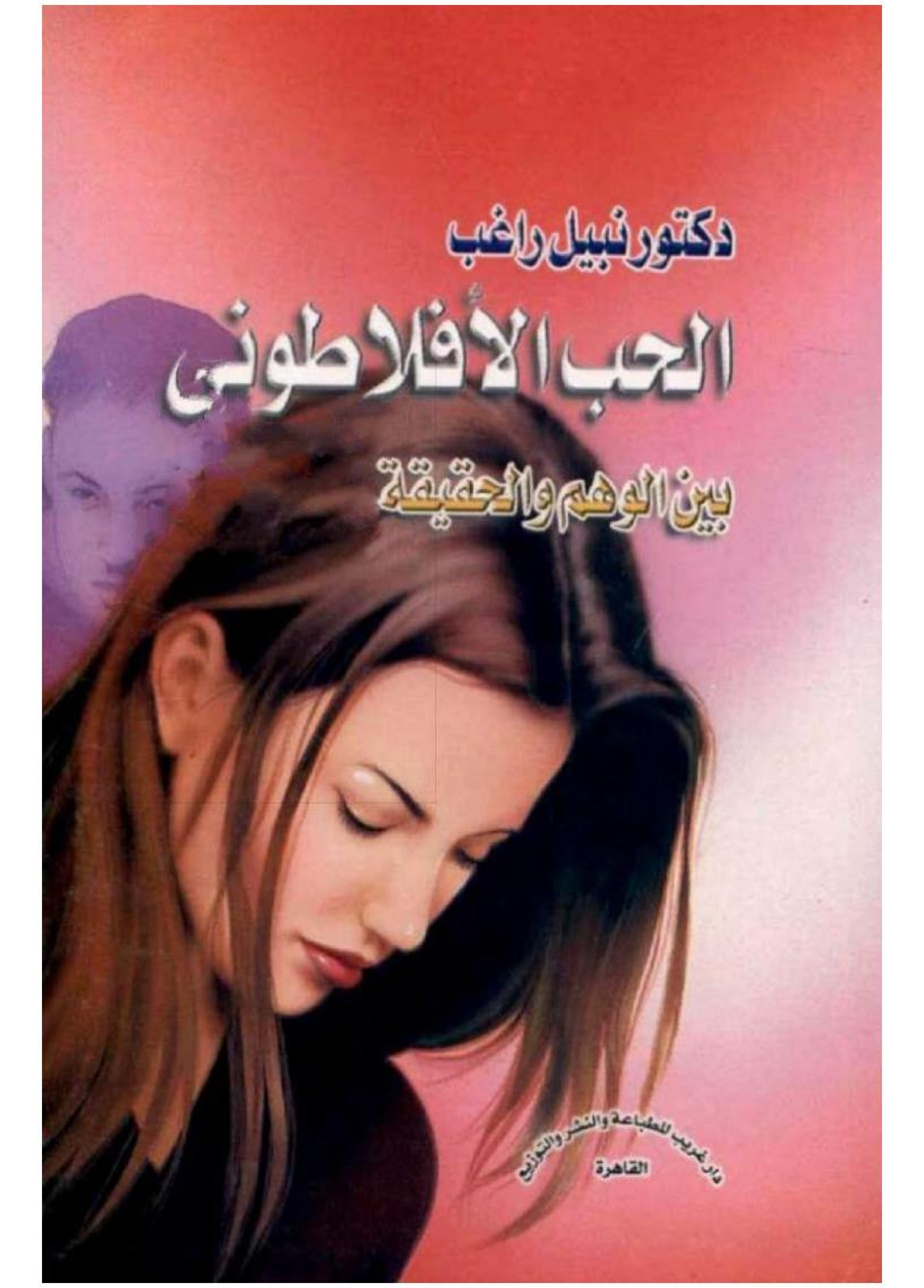

دكتور نبيل راغب
الحب الأفلاطوني
بين الوهم والحقيقة
دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الحب الأفلاطونى

بين الوهم والحقيقة

دكتور نبيل راغب



الكتاب : الحب الأفلاطونى بين الوهم والحقيقة
المؤلف : د/ نبيل راغب
تاريخ النشر : ١٩٩٨
رقم الإيداع : ٩٨/٤٦٢٦
الترقيم الدولى : I S B N 977-215-319-X

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

مقدمة

كان «الحب الأفلاطونى» من المصطلحات أو المفاهيم التى عانت من سوء الفهم عبر عصور التاريخ، ليس بين عامة القراء والمثقفين فحسب، بل بين النقاد المتخصصين الذين تصوروا أو ظنوا أن الحب الأفلاطونى هو ذلك الحب الذى ينشأ بين العشاق الرومانسيين الذين يسمون بأنفسهم فوق رغبات الجسد وشطحات الجنس، حين يهيمون حبا لأطياف روح الحبيب، ويجدون متعتهم القصوى بل ونشوتهم فى العواطف الجياشة المتدفقة بالوجد والحنين القاتل الذى لا يشبع ولا يرتوى أبدا. كأن الحب الأفلاطونى هو تقنين لمذهب الحب من أجل الحب. فالعشاق أطياف سارية عند آفاق لا تعترف بحدود المكان والزمان أو بقيود الجسد الفانى الذى لا يتسع لمثل هذا الحب الجارف المتدفق من ينابيع لا يعلم أحد بدايتها أو نهايتها.

وشكل هذا الحب بدوره تيارا جارفا فى الأدب العالمى، لاقى رواجا كبيرا فى عصور متعددة بين جمهور مشاهدى المسرح أو قراء الرواية. ويكفى أن نذكر مثالين على ذلك: مسرحية «روميو وجوليت» لشكسبير، ورواية «آلام فيرتر»

لجيته. وقد أقبل الجمهور على هذا الأدب المسرف فى الشطحات العاطفية، والذى لا يعترف بأية عقبات فى طريق العشاق حتى لو كانت نهايتهم مأسوية، لأنه منح هذا الجمهور عالما مثيرا وممتعا، انطلق به بعيدا عن قيود الواقع المحدود، بل وحرضه على الممارسة الفعلية لهذا العالم المثير والممتع الذى يوسع من آفاق وجوده الضيق إلى آفاق لا يعلم نهايتها سوى الله. وربما كانت نهاية مأسوية مثل انتحار فيرتر الذى أغرى عددا كبيرا من الشباب الألمانى بمحاكاته فى مظهره وسلوكه بل وانتحاره الذى أقبلوا عليه مستعذبين التضحية بالحياة من أجل الحبيب.

ارتبط هذا السلوك أو المفهوم بالحب الأفلاطونى برغم أنه لا يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد. وقد قمنا ببحث دؤوب ومستفيض لعلنا نضع أيدينا على السبب أو السر فى هذا الارتباط الوثيق والطويل بين الحب الأفلاطونى أو مفهوم الحب عند أفلاطون وبين الحب الرومانسى المسرف فى العواطف الجياشة والتطلعات الروحية، فلم نجد سببا مقنعا، سوى أنه سوء فهم حدث فى عصر ما، ثم انتقل عبر العصور على أنه التفسير الصحيح لمنظور أفلاطون إلى الحب. صحيح أن هناك جانبا روحيا وميتافيزيقيا فى هذا المنظور، لكنه جانب صوفى يسعى لتكثيف العلاقة بين الخالق والمخلوق الذى قد يمكنه بالحب والحدس أن يدرك ما لا يستطيع أن يدركه بالعقل والفكر. ومن الواضح أن هذا الحب الصوفى الميتافيزيقى لا يمت بصلة للحب

الرومانسى بين البشر. فالوجد الرومانسى مهما تطرف فى شطحاته، فإنه يصدر عن مخلوق بشرى مرئى ومحدود وفان، بل ويتركز فيه ولا يتخلص من إساره، أما الوجد الصوفى فيسمو فوق كل هذه الاعتبارات الدنيوية فى محاولة ميتافيزيقية ومنتشية بحب الخالق الموجود فى كل الوجود الذى لا يعرف الحدود أو البدايات أو النهايات.

وبالإضافة إلى هذا الجانب الصوفى الميتافيزيقى فى مفهوم أفلاطون للحب، هناك جانبان آخران لايمتان للحب الرومانسى التقليدى بصلة. الجانب الأول يتمثل فى نوع من التكاثر البشرى الذى يشبه إلى حد كبير التكاثر الحيوانى المنظم الذى يهدف إلى إنتاج وتوليد أحسن وأفضل وأقوى السلالات التى يمكنها أن تحقق أهداف المجتمع وآماله فى التطور والتقدم عبر أجياله المتعاقبة. وهذا النوع من الحب يجعل من الجنس مجرد آلية للتناسل الذى لا يمكن أن يحمل فى طياته أية أطياف رومانسية. فالعلاقة بين الفتى والفتاة لا تتجاوز لحظات الممارسة الجنسية لزوم الإخصاب، وبعد ذلك يلتفت كل منهما إلى تأدية المهام المنوطة به فى المجتمع أو المدينة الفاضلة أو الجمهورية المثالية التى تصورها أفلاطون. أى أن هذا الجانب من الحب الأفلاطونى لا يزيد على الدور الذى تقوم به المحطات الحديثة لتوليد الماشية والطيور لاستخراج أفضل السلالات، وتربيتها بهدف تمكينها من القيام بالوظائف المطلوبة منها على خير وجه ممكن.

أما الجانب الآخر فى مفهوم أفلاطون للحب، فهو مضاد أيضا للفكرة الخاطئة عن الحب الأفلاطونى الغارق وسط طيات الخصوصية الحميمية بين العاشقين اللذين يريان فى حبهما كنزا أو سرا مغلقا عليهما لا يدرك أحد خفاياه وخباياه سواهما. ذلك أن أفلاطون ينتقل من هذه الخصوصية الحميمية المنغلقة على العاشقين، إلى عمومية تشمل المجتمع كله، مما جعل بعض المفكرين يوصمون أفلاطون بمناداته بشيوعية الحب والجنس. فهو لا يفترض فى الحب أن يكون موجها إلى شخص معين بالذات بل إلى كل أفراد الجنس الآخر، خاصة الذين ينتمون إلى نفس الجيل، إذ أن الجاذبية الجنسية مشاع بين الجميع وبذلك يخرج الحب من نطاق الفردية الضيقة إلى المجال الاجتماعى العام بحيث لا يحب الفرد فردا آخر بل يحب المجتمع بأسره. وبذلك يساوى أفلاطون مرة أخرى بين الإنسان والحيوان ببساطة شديدة تهدر كل القيم والمثل والمشاعر والأفكار التى جعلت من الإنسان إنسانا وفضلته على المخلوقات الأخرى.

قد تكون هذه التعرية لحقيقة مفهوم أفلاطون عن الحب بمثابة صدمة للذين صدقوا الفكرة الخاطئة المتداولة عن الحب الأفلاطونى العفيف والطاهر والمتسامى والروحانى الذى يرى فى الحب غاية فى حد ذاته، والذى تخلص من كل أدران الشهوة الجسدية العابرة، طلبا للنشوة الروحية الدائمة. لكن تصحيح المفاهيم ووضعها فى مكانها الحقيقى على خريطة الفكر

الإنســـانى، ضـــرورة من ضـــرورات المنهج العلمى والتــفكيــر الموضـــوعى. بل إن هناك شــبــهــات قــوية تحــوم حــول الحــيــاة الشــخصــية لأفـلاطون نفسه. فـهو لم يـتزوج ولـم يكن للمـرأة أى دور فى حـيـاته، وتكـلـم عنهـا بغـيـر قليل مـن الاحــتـقـار فى بعض مـحاوراته، خـاصة مـحاورة «الجـمهـورية» التى عرفت بجـمـهـورية أفـلاطون، بـرغـم أنـه سـاوى بينهـا وبين الرجل فـى الـواجـبـات، بما فـيــهــا واجـب حــمل الســلاح والدفـــاع عن الوطن. لكـن يبــدو أن حـمـاسـه للـعـلاقـات الجنسـيـة المشـاع بين الجـنسـين، كـان تغطيـة لحـمـاسـه لتلك الـعـلاقـات بين أفـراد الجـنس الـواحـد. وهـناك دلالات وتلـمـيحـات فى مـحـاوراته التـى يصـف فيـهـا الصـداقة بين الذكـور، والتى تنم عن إعـجـابه الـدفين بالتناسـق الجـمـيل والبـديع لأجـســام المراهـقين والفــتـيـان، خـاصــة عـنـدمـا يتـعـرون فى قــاعـات الألـعـاب الـريـاضــية. وقـد أكـد عـلـماء النفس فى الـعـصـر الحـديث، مـن خـلال تحليلاتهم لشــخـصـيــة أفلاطـون، أن مثل هـذه الأوصــاف والـصـور لا تصـــدر إلا عن رجل مـــصــاب بالـشــذوذ الجـنـسى. وهـذه ضـــربة قاصـمة أخرى لـلفكرة الـخاطئة الشائعة عن الحب الأفـلاطونى.

ومع ذلك فـهذا لا يقلل مـن شـأن أفلاطون بصـفـتـه أحد رواد الفكر الإنسـانى الذى ترك بصـمـاته واضـحة وغـائرة فـيـه عبـر مـا يزيد على ثـلاثة وعـشـرين قـرنا من الـزمـان، إذ أنه ولد عـام ٤٢٧ ق.م ورحل عـــام ٣٤٧. ومـــا زالت أفـكاره تفــرض نفـســـهـــا عـلى الفلاسـفة والمنظرين حـتى الآن. بل إن الذين رفضـوهـا وشـجـبوهـا

أو دمغوها باستحالة تطبيقها، كانوا مدركين لمدى تأثيرها الذى تمارسه على الفكر الحديث، وبالتالى تأكدوا من استحالة تجاهلها أو التغاضى عنها. بل إن مصداقيتها تزداد فى نظر الجميع إذا ما تمت دراستها وتحليلها فى إطارها الزمنى الذى دفعه إلى تأليف أهم ثلاث مجموعات من الحوارات وهى «الجمهورية» و«السياسى» و «القوانين»، وذلك فى محاولة فلسفية وعلمية ومنهجية لرسم خريطة فكرية لعصره، لعله يدرك الدروب والمسالك التى تسهل له مهمة الخروج من جحيم الحروب والصراعات التى كانت تمزق بلاد اليونان عبر سنوات متصلة، قضت فيها على زهرة شبابها. فقد كانت بلاد اليونان مقسمة إلى ولايات أو دويلات أو دول/ مدن، فى مقدمتها أثينا، وإسبرطة، وطيبة، وكورنثوس، وتراكيا، ومقدونيا، وأركاديا، وميجاريا، وإيليديا وغيرها من تلك الولايات التى لم تعرف السلام الدائم أبدا بل مجرد هدنات مسلحة أو معاهدات صلح مؤقتة لا تلبث أن تدوس عليها سنابك الخيل وعجلات العربات الحربية وأقدام الجنود.

وكان من الطبيعى أن تؤدى نظرة أفلاطون الثاقبة إلى أحوال عصره المضطربة إلى الذهول من كم الكراهية والحقد والانتقام الذى تنطوى عليه النفوس البشرية التى لا تنتشى إلا بمشاهد الدماء المهدرة والجثث المتناثرة والأشلاء التى انفصلت عن أصحابها. ولابد أنه فكر مليا فى رفع رايات الحب والتعاون

والتآلف والتسامح حتى يتفرغ أبناء اليونان فى دويلاتهم المتناحرة لبناء بلادهم وتقدمها وازدهارها. ولذلك كان أفلاطون مهموما بالحب على المستوى الجماهيرى والقومى العام، وليس على المستوى الشخصى الخاص جدا بين حبيبين. فقد تمثل هدفه الاستراتيجى فى رسم تصور عام للدولة أو الجمهورية أو المدينة الفاضلة التى تقيم دعائمها على الحب والتعاون الإيجابى بكل الوسائل المتاحة وفى كل الصور الممكنة. فقد كان الحديث عن الحب الشخصى والعلاقة الحميمة بين عاشقين بمثابة رفاهية لا يقدر عليها أفلاطون فى زمنه المتفجر بالحروب المتصلة والصراعات المأسوية والتمزقات التى تحيل حياة اليونان كلها إلى جحيم مقيم.

شكل الحب نغمة أساسية فى معظم كتابات أفلاطون الاجتماعية والسياسية والتربوية والثقافية والحضارية. ففى مجال السياسة مثلا يضع يده على نقطة حيوية وخطيرة حين عالج قضية الحكم الأوليجاركى الذى يقصر السلطة على قلة من الأغنياء أصحاب الثروات ولا يتيح أية فرصة للكادحين أو الفقراء أو المعدمين للحياة على مستوى يليق بكيانهم الإنسانى. ففى مجتمع بهذه الوضعية المهدرة للإنسانية لا يمكن أن ينتشر الحب الذى يعد علاقة بين طرفين لابد أن يشعر كلاهما بالعدالة والإنصاف والاحترام المتبادل. لكن إذا انعدم هذا التوازن والتناغم فلابد أن تتفاقم الأمور، ويحل الحقد محل الحب، والانتقام محل

الاحترام، والكراهية محل التسامح، خاصة عندما يشعر الفقير المعدم أنه لا يملك ما يخاف عليه من الضياع فى حين يملك الغنى كل ما تستطيع يده أن تصل إليه، وهى قادرة على الإمساك بتلابيب كل ما يرغب. ومن العبث أن يُطالب الفقير بأن يحب الغنى دون مقابل. وإذا لم يحب الأغنياء سوى ذواتهم التى انغلقوا عليها، فيجب ألا يظنوا أنهم بعيدون عن الطوفان الذى لابد أن تأتى لحظة يجرف فيها حصونهم ويبتلعهم حتى القاع. أما صمام الأمن من كل هذه المآسى والمحن فيكمن فى سيادة الحب القائم على العدل.

من هنا كانت المثالية التى اشتهر بها أفلاطون. فقد كان رافضا لواقع عصره الذى أدى إلى إعدام أستاذه سقراط بمنتهى البساطة نتيجة للحقد الأسود الذى كان خصومه يكنونه لتوجهاته الإنسانية الرفيعة، فاتهموه بالإلحاد وإفساد أخلاق الشباب. ويبدو أن أفلاطون قد أراد تجنب حقدهم الأسود من أن ينال منه هو الآخر، فلجأ إلى أسلوب المحاورات التى كتب بها مؤلفاته التى كان بطلها سقراط الذى قام بالدور الأكبر فى عرض أفكاره، أى أن سقراط كان بمثابة القناع الذى احتمى به أفلاطون لكى يقول كل ما يرغب فى الإدلاء به دون أن يلصق أحد أية تهمة به كما فعلوا بسقراط من قبل. فقد كان الحقد والانتقام هما قانون المجتمع القائم بالفعل، فأراد أفلاطون أن يجعل من الحب والتسامح قانون المجتمع كما يجب أن يكون. ومن هنا كان فكره

المثالى الذى تمنى أن تحيله الأجيال المتعاقبة إلى واقع إنسانى ملموس.

وهذه الدراسة تحليل للجوانب المتعددة لمفهوم الحب الأفلاطونى، التى تدحض بوضوح الفكرة الخاطئة عنه، التى جعلت منه مجرد صورة باهتة للحب العذرى والعفيف الذى لم يكن فى حاجة إلى التلفح بهذا المصطلح الذى لا يدل عليه بأية صورة من الصور. فقد انتشر هذا النوع من الحب العذرى عبر العصور والبلاد فى قصائد ومسرحيات وروايات عديدة لأنه لاقى هوى فى نفوس الكثيرين دون إقحام مصطلح الحب الأفلاطونى عليه. ذلك أن الحب الأفلاطونى مفهوم واسع وشامل وعميق وقادر على احتواء كل مظاهر الحياة الواقعية وتحويلها إلى منظومة متناغمة لصالح البشرية جمعاء. وسواء اتفقنا مع أفلاطون أو رفضناه، فلاشك أن مفهوم الحب عنده مثير للتفكير وتوليد توجهات جديدة تناسب ظروف كل عصر على حدة. فلازالت الإنسانية فى أشد الحاجة إلى قيم الحب والتعاون والتآلف والتسامح وهى تخطو بأقدام مترددة ومتعثرة لتعبر إلى القرن الحادى والعشرين بعد الميلاد. فمن الطبيعى ألا توافقنا مفاهيم الحب الأفلاطونى التى تبعد عنا بأكثر من ثلاثة وعشرين قرنا، تغير فيها شكل الحياة تغييرا جذريا، لكننا نظل فى أشد الحاجة إلى الروح المثالية أو المثل الأعلى الذى ضربه أفلاطون لنا، والذى يتمثل فى الحب الذى يشتمل على كل القيم السامية التى عاشت

الإنسانية على هديها عبر القرون. وسعادة البشرية مرتهنة بمدى قربها أو ابتعادها عن هذه القيم. فإذا كانت مفاهيم الحب وتقاليده وتطبيقاته فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الثالث لابد أن تختلف بطبيعة الأمر عنها فى أواخر القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين بعد الميلاد، فإن جوهر الحب يظل واحدا، فهو الذى يمنح الإنسان شرعية وجوده الراقى اللائق به، وبدونه تتحول الحياة إلى غابة معتمة لا تعرف سوى قوانين البطش الغاشم.

مراقية فى ١٦ سبتمبر ١٩٩٧

د. نبيل راغب

الفصل الأول

أفلاطون وعصره

ولد أفلاطون عام ٤٢٧ ق.م وعاش حتى بلغ الثمانين، فقد توفى عام ٣٤٧. وكان مولده فى جزيرة قريبة من أثينا من أسرة ذات نسب شريف، فأبوه ينحدر من آخر ملوك أثينا القدماء الذين حكموها حتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد، وصدوا عنها غارات الدوريين، وهزموهم شر هزيمة. وأمه تنحدر من السلالة نفسها وإن كانت تنتمى إلى الفرع الذى أنجب المشرع الشهير صولون. وقد سجل أفلاطون فى محاوراته اعتزازه بنسبه هذا لدرجة أنه جعل أسماء بعض أفراد أسرته عناوين لبعض محاوراته، مثل جده لأمه كريتياس. كما يظهر أخواه جلوكون وأديمانتوس فى محاورات «الجمهورية» أما سبيسيبوس ابن أخته فقد خلفه فى رياسة الأكاديمية الشهيرة التى أنشأها. كذلك خصص أفلاطون محاورة باسم خاله خرميدس وابن عمه كريتياس - غير كريتياس الجد - اللذين

كانا ضمن مجموعة الطغاة الثلاثين الذين حكموا أثينا فى أعقاب الحرب البلوبونوزية عام ٤٠٤ ق.م.

وكان ذكر أفلاطون لأسرته لأنها كانت المدرسة التى تخرج فيها بعد أن علمته فنون السياسة وألاعيبها، والتى منحته الدفعة الأولى ليكون ذلك الفيلسوف الأغر الذى يستوعب وقائع عصره وحقائقه كما يهضم القضايا الميتافيزيقية المجردة، مما منحه موسوعية وعمقا لا يتأتيان للفلاسفة الذين استغرقتهم قضايا بعينها. وكان فى صباه المبكر قد أجاد القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب والهندسة، وحفظ شعر هوميروس وهيزيود، ومارس الغناء والعزف على القيثارة، وكذلك الألعاب الرياضية، كما لم يهمل ممارسة الفنون الجميلة مثل التصوير والنحت والحفر وتأليف القصائد الشعرية والمسرحيات، مما منحه رؤية نقدية وتحليلية مبكرة لهذه الفنون. ويقال إنه حين قابل سقراط أحرق المسرحيات التى كان قد ألفها، وتفرغ بعد ذلك للفلسفة.

وكان سقراط أهم شخصية أثرت فى أفلاطون، ومع ذلك أغفل أفلاطون ذكر نفسه وآرائه فى المحاورات التى كان بطلها سقراط، فلم يذكر نفسه إلا مرتين، مرة فى محاورة «الدفاع» ليحث سقراط مع بعض أصدقائه على قبول دفع الغرامة، والأخرى فى محاورة «فيدون» التى اعتذر فيها عن عدم تمكنه من الحضور لمرضه. وكان أفلاطون فى شبابه ينوى أن يشارك فى

الحياة العامة مثل معظم أبناء جيله الساخطين على الدستور القائم، لكن انقلابا وقع وأدى إلى استيلاء مجموعة من واحد وخمسين سياسيا على الحكم، بقى منهم عشرة فى أثينا، وأحد عشر فى بيرايوس، فى حين مارس الثلاثون الآخرون سلطة البطش والطغيان على الجميع، وكان منهم بعض أقرباء وأصدقاء أفلاطون الذين دعوه للمشاركة معهم. لكنه سرعان ما اكتشف بشاعة أسلوبهم الديكتاتورى الذى جعل الدستور القديم حلما جميلا يحلم الجميع بالعودة إليه وتحقيقه. ولم يتورعوا عن فعل أى شىء بما فى ذلك إرسال صديقه الأثير سقراط للقيام بالقبض على أحد المواطنين وإحضاره إليهم، برغم أن أفلاطون رأى فى سقراط أعدل رجل فى عصره. فلما رأى أفلاطون كل هذه الأحداث والجرائم التى لا تبشر بأى خير، أصابه الاشمئزاز وانسحب من شرور زمنه وأحقاده. كان يحلم بمجتمع مثالى يسوده الحب والسلام والتعاون والتآلف والتناغم، وظن أن فى إمكانه الشروع فى التبشير به بعد سقوط حكومة الثلاثين، لكنه فوجئ بالحكام الجدد وهم يسعون لتقديم صديق عمره سقراط إلى المحاكمة بتهم الإلحاد وإفساد الشباب، وحكموا عليه بالإعدام بتجرع السم الذى تناوله عن طيب خاطر وإرادة حديدية جعلت منه أسطورة لا تموت.

ولم تكن أثينا أفضل حالا من غيرها من الولايات أو المدن اليونانية الأخرى التى نهشها الحقد ومزقها الفساد بلا هوادة.

وقد أدى فساد الحكام والساسة بأفلاطون إلى الإيمان بضرورة نفى محترفى السياسة والمستفيدين بها بعيدا عن كراسى الحكم، واستيلاء الفلاسفة الحقيقيين على السلطة السياسية فى حالة عجز حكام المدن عن أن يصبحوا فلاسفة حقيقيين. وكانت هذه الفلسفة بمثابة القاعدة التى أقام عليها أفلاطون جمهوريته أو مدينته الفاضلة التى يسوسها الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم. ولو طبقت هذه الفلسفة لما تم إعدام سقراط الفيلسوف العظيم الذى لم تحتمله أثينا بكل فسادها وحقدها على أمثاله. وكان من الطبيعى بعد تنفيذ الإعلام فى سقراط أن يهجر أفلاطون أثينا، ويقوم برحلات إلى بلاد العالم الأخرى لعله يجد فيها بغيته. وكانت ميجاريا ومصر وسرينيا بالنسبة له بمثابة مراحل فى تطوره الفكرى مع تنقله بينها. لكن هذا التطور الفكرى لم يبعده عن أثينا إلا ليعيده إليها بفلسفة أكثر عمقاً وشمولاً تمكنه من القيام بالمهمة التى تنتظره هناك. فى ميجاريا التقى بالفيلسوف إقليدس الذى استعاد معه ومع مضيفيه ذكريات أستاذهم سقراط، واستخرجوا منها العبر والدلالات والمعانى الجديدة فى ضوء أحداث اتهامه وإعدامه. لكنه اكتشف فروقاً عميقة فى التفكير بينه وبين إقليدس، لم يدركها فى أيام زمالته له عندما كانا يتلقيان العلم والفكر والفلسفة على يدى سقراط. فدخل فى مناقشات ومجادلات ومعارضات أصابته فى النهاية بالضجر والسأم والإحساس الممعن بتضييع الوقت الثمين

وإهداره. كان إقليدس، يرى الخير فى مجرد الوجود أو العلم فى حين أصر أفلاطون على أنه علة الوجود والعلم. فلاخير فى المعرفة التى لا تصدر عن خير الإنسان وتؤدى إليه، ذلك أن المعرفة ليست من أجل المعرفة ولكن من أجل الإنسان. ويجب على الفلسفة أن تسعى دائماً للرقى بالحياة، لا أن تقبع أسيرة الحجج والجدليات المنطقية المحكمة والمجردة بعيداً عن معترك الحياة وخضمها المتغير دائماً. وعندما أدرك أفلاطون عقم مجادلاته مع إقليدس ومجموعته، عاد إلى أثينا ليشد منها رحاله إلى مصر التى شكلت منذ زمن بعيد مركزاً محورياً لجذب اليونانيين إليها، سواء للاطلاع على إنجازاتها الحضارية المبهرة، أو تلقى العلم والمعرفة فى معاهدها، أو الجرى وراء التجارة الرابحة، أو ممارسة المغامرات الحافلة بالإثارة والغموض. وكان صولون المشرع الشهير الذى تنحدر أم أفلاطون من صلبه قد أقام فى مدينة سايس بمنطقة الدلتا المصرية حيث تحدث إليه الكهنة فى شىء من الافتخار عن عراقة تراثهم الذى كان مصدراً لاينضب من الحكمة والمعرفة للإنسانية جمعاء. ويذكر أفلاطون، فى شيخوخته بعد ذلك، أنه كان معجباً أشد الإعجاب بالحضارة المصرية، إذ قال: «إننا نجد لديهم أعمال نحت وحفر مذهلة ترجع إلى عشرة آلاف سنة». وكان يعتقد أن المشرع اليونانى يمكنه السير على نهجهم والاستفادة بانجازاتهم التشريعية إذا أراد أن يجنب أبناء وطنه كل البدع المفسدة، بل إذا

أراد أن ينظم حياتهم الترفيهية بالموسيقى والرقص والغناء، فلم يترك المصريون أى جانب من جوانب حياتهم إلا وقاموا بتنظيمه على خير وجه.

ويذكر المؤرخ إسترابون أنه زار المنزل الذى كان يعيش فيه أفلاطون فى مصر، أي بعد ثلاثمائة عام من موته. ومن الواضح أن أفلاطون قضى فى مصر وقتاً طويلاً، استطاع فيه أن يعاين ويلم بآثارها وعلومها وفنونها ، ونظم التعليم المتبعة فيها ، وتفوقها بصفة خاصة فى الرياضيات والهندسة. وكانت هليوبوليس مقر إقامة أفلاطون، أى فى قلب قاعدة الديانة والمعرفة والحكمة والعلم، وكانت متاخمة للمنطقة المعروفة الآن باسم عين شمس. وقد بُهر أفلاطون بالإنجازات المادية الملموسة على أرض مصر، كما بهر بالإنجازات الاجتماعية والإنسانية التى تجلت فى العلاقات بين الحاكم والمحكوم، بين الكاهن والرعية، بين مختلف طبقات الشعب وأفراده الذين لم تمزقهم الصراعات والحروب الأهلية كما كان يحدث فى اليونان بين مدنها وولاياتها، بل شكل المجتمع المصرى نواة صلبة فى مواجهة الاحتلال الفارسى الذى لم ينل منه. وكان الحب والتآلف والتناغم ، السر فى صلابة هذه النواة التى وضعت المصريين كلهم فى خندق واحد، بينما فرق الحقد والانتقام والكراهية بلاد اليونان وأحال حياة أبنائها إلى جحيم. وقد عبر أفلاطون عن انبهاره بالتقدم المادى والروحى والاجتماعى الذى أحرزته الحضارة المصرية

القديمة فى محاورة «تيماوس» حين حكى على لسان أحد الكهنة قائلاً للمشرع اليونانى الشهير صولون: «أيها الإغريق.. أنتم لستم سوى أطفال».

أدرك أفلاطون على أيدى المصريين أن المجتمع الذى يفشل فى أن يجعل من نفسه منظومة متناغمة قائمة على الحب والتآلف ، لابد أن يكون مصيره التشتت والتمزق والضياع وربما الاندثار. فقد لمس كيف استطاع المصريون الحفاظ على التقاليد الحضارية عبر آلاف السنين، مهما تغيرت العهود والعصور والأسرات الحاكمة، وكيف نظموا العلاقة بين النظم الدينية والروحية الراسخة والحياة الاجتماعية المادية التى تخضع لأحكام العقل البشرى، وكيف تفوقوا فى مختلف الفنون ، خاصة النحت والحفر والموسيقى، بل ومزجوا بينها وبين العلوم الطبيعية والرياضية كالهندسة والمعمار. كانت الحياة المصرية منظومة راسخة ومتجددة فى الوقت نفسه، وهى المنظومة التى تركت بصماتها واضحة فى محاورات أفلاطون، خاصة «الجمهورية»، وإن كان قد طعمها بالفلسفة اليونانية.

إن التقدم الحضارى فى جوهره نمو وتطور واتصال واستمرار.ولا يتأتى هذا إلا من خلال الاستقرار والرسوخ اللذين لا يعرفان الجمود والتحجر. أما عوامل الحقد والانتقام والحروب الأهلية فكفيلة بإجهاض كل محاولات الميلاد الحضارى الجديد. وهو ما عانت منه بلاد اليونان التى لم تعرف الإدارة الحكومية

الراقية والموضوعية، ولا التخصص الواضح فى المهن، ولا تقسيم العمل بهدف توفير الجهد والوقت وإنجازه على أفضل صورة، ولا توارث الحرف بحيث يضيف كل جيل إنجازات جديدة إلى الجيل الذى سبقه. فقد كان من المألوف فى أثينا أن يشتغل المرء بكل شىء وأى شىء، باستثناء الفلاسفة والعلماء والفنانين الذين تربعوا على قمم تخصصاتهم. وكان من الطبيعى أن يبلور أفلاطون هذه المشاهدات والخبرات فى محاوراته بعد ذلك حتى يطعم بلاده بقوى الدفع الحضارى الذى تفتقر إليه.

فى محاورة «القوانين» يبدى أفلاطون انبهاره بنظام التعليم الإجبارى فى مصر بين كل طبقات الشعب، فى حين كانت طبقات كثيرة فى اليونان، وفى مقدمتها الطبقات الفقيرة تعانى من الأمية. ففى مصر يتحتم على جميع المواطنين أن يتعلموا كل أنواع الرياضيات من حساب وهندسة وفلك. وكلما كان التعليم مبكراً، أى من سنوات الصبا، كان مجدياً ومثمراً للأمة كلها. وكان المصريون قد ابتكروا طريقة عملية وسهلة لتعليم الكسور والقسمة للصبية فى المدارس، بحيث أصبحت من المعلومات العامة لدى كل المواطنين.

ولم يكن هناك أى تعارض بين الفكر الدينى والتفكير العلمى، بل كان كل منهما يكمل الآخر من أجل حياة متكاملة للإنسان المصرى. ويبدى أفلاطون دراية عجيبة بآلهة المصريين وحياتهم الدينية، فيقدم وصفاً مسهباً للإله توت وأيزيس

وغيرهما من الآلهة ، مما دفع ببعض المؤرخين إلى الظن بأن أفلاطون استطاع من خلال إقامته الطويلة فى مصر أن يتعلم اللغة المصرية التى مكنته من دراسة هذه الطقوس والأناشيد والترانيم والمعتقدات ، فى حين ذهب البعض الآخر إلى احتمال أن يكون بعض الكهنة المصريين ملماً باللغة اليونانية ، وأحاط أفلاطون علماً بما يريد أن يطلع عليه ويعرفه.

ويبدو أن انبهار أفلاطون بالنظام المصرى المحكم قد أدى به إلى التطرف فى تصوره للنظام المثالى الذى ابتدعه فى «الجمهورية» على وجه الخصوص. فلا يكفى أن تكون النظم أفضل ما يمكن، بل يتعين حماية هذه النظم وتحصينها . وقد أدرك المصريون أن المواطن الصالح لا يمكن أن ينشأ إلا فى ظل تثقيف ملائم لتحقيق هذا الهدف. وهدف التربية عندهم لا يقتصر على هدف أفلاطون بإيجاد القادة المطلوبين، وإنما بإيجاد المواطنين الخيرين الأفاضل على المستوى الشعبى العام. وبمرور الزمن يصبح أحسن هؤلاء- أو بالأحرى أصلحهم للسياسة- حكاماً يدركون آفاق عصرهم ويعملون على تحقيق أمانى شعوبهم. لكن يبدو أن أفلاطون لم يفطن إلى أن العوامل الاقتصادية قد تؤثر فى الحياة الخاصة والعامة. ومع هذا لم يكن فى وسعه أن يغفل عن القلاقل التى تنشأ فى محيط الأسر والشعوب عن المتاعب المالية التى تبدو واضحة بمجرد بروزها على السطح ولا يمكن تجاهلها بأية حال من الأحوال. لكن يجب

أن نضع فى اعتبارنا أن أفلاطون نفسه لم يكن يعانى من أية مشكلات أو التزامات مالية، بحيث لم يعالجها على الوجه المطلوب فى محاوراته.

ولم تكن طريقة أفلاطون فى معالجة المشكلات السياسية حسابية بالمعنى الذى فهمه فى أثناء إقامته بمصر، بل كانت هندسية بمعنى أن المجتمع فى نظره كان مجرد نظام وقياس . وقد بسط هذا التصور حتى شمل كل شىء يتصل بتدبير المدينة أو المنزل أو الحياة الخاصة للمواطن. وتطرف أفلاطون فى تصوره هذا لدرجة أنه أوشك على إغفال العامل الإنسانى الذى يعد المحرك الأساسى لأية خطوة تنظيمية . فكل شىء فى المدينة المثالية والكاملة يتحتم تنظيمه مهما تناهى فى الدقة والصغر، ولا يمكن حدوث أى شىء دون أن يُعرف مقدماً. ولذلك ليس فى حياة هذه المدينة فرصة يمكن أن تنتهز، ولا مجال لاختيار، ولا مكان لشىء غريب مخالف للنظام. فالمدينة تقوم بوظيفتها كما تؤدى الآلة الميكانيكية عملها. وهو يعالج فى بعض فصول محاورة «القوانين» تنظيم الحياة الخاصة بكثير من التفصيل والإسهاب، وقليل جداً من التحفظ من خلال استخدامه لكلمات شبيهة بالرموز الهندسية.

والنمط الرياضى الواضح فى «جمهورية أفلاطون» الذى استوحى بعض ملامحه من منظومة الحياة الاجتماعية فى مصر، كان متطرفاً لدرجة أنه لم يفسح للحرية فيه أى مجال.

فالحرية عنده إنكار للفضيلة، وعلى كل إنسان أن يعرف مكانه وأن يلزمه، وعليه أن يعرف واجبه وأن يقوم بأدائه، وليس فى وسع أحد أن يختار مكانه ولا واجبه، بل إن الحاكم نفسه ليس حراً، وإن لم يكن فى استطاعة أى فرد أن يراقبه ، لأنه هو وحده الذى يراقب نفسه، وعلى كل مواطن أن يهتم بشئونه الخاصة، وأن يتبع هذا النظام الاجتماعى إلى أقصى حد. وفى محاورة «القوانين» حرم أفلاطون على الشباب أن يتعرضوا لنظم المدينة بنقد وإن كان فى وسع الشيخ المجرب والمحنك أن يفعل هذا، على ألا يكون فى حضرته عندما يعلن نقده أى شاب. كذلك فإن الرقابة يجب أن تكون بالمرصاد للتربية على كل المستويات، فيجب ألا تتاح للمواطنين - شباباً - وشيباً- فرصة يتسنى لهم فيها أن يقرءوا شيئاً لم تقره الدولة، ولا أن ينصتوا إلى أحاديث تتعارض مع قوانين المدينة ونظمها، ولا أن يستمعوا إلى موسيقى غير مناسبة.

ومن الواضح أن أفلاطون لجأ إلى هذه الصرامة الرياضية الخانقة للحريات كرد على مظاهر الفساد والتسيب والتمزق والحقد والصراع والانقسام والتشتت التى تحولت إلى حروب أهلية فعلية بين مختلف المدن والولايات اليونانية. فعندما يستحيل على البشر أن يتخذوا من الحب دستوراً يسلكون طبقاً لتعاليمه ، فلا يتبقى سوى أن يُفرض عليهم نظام حديدى يمنع بقدر الإمكان التجاوزات والتعديات التى تحيل المجتمع إلى غابة

يصبح فيها الجميع تحت رحمة الفوضى التى تفوق فى بشاعتها أى نظام مهما كان صارماً ومجحفاً.

ثم رحل أفلاطون من مصر إلى سرينيا فى شمال أفريقيا حيث التقى بثيودورس الرياضى الذى ورد ذكره فى ثلاث محاورات لأفلاطون، وكان صديقاً لبروتاجوراس . ودارت أحاديث ومجادلات ومحاورات مسهبة بين أفلاطون وثيودورس، كان سقراط أستاذهما الراحل بطلاً لها. وكان ثيودورس رياضياً أكثر منه فيلسوفاً مغرماً بالبيان والجدل والتلاعب بالأفكار والمعانى ، وأحب فيه أفلاطون هذه الخاصية، إذ لم يكن يسعى إلى الحجج المنطقية المحكمة بقدر ما حفز طلبته على البحث والاستقصاء لاكتشاف الجديد دائماً. فالجدل حول القديم غير مجد إذا ما قورن باستشراف آفاق المستقبل. وكانت هذه هى القاعدة التى انطلقت منها كل تساؤلات أستاذهما سقراط الذى لم يكن يتوقف أمام القديم إلا لتعرية سلبياته وخرافاته وتفاهاته حتى تتضح رؤية المستقبل على أساس موضوعى وعلمى يمكن الإنسان من السير قدماً إلى الأمام دون عثرات أو كبوات.

وقبل أن يعود أفلاطون إلى أثينا ، توجه إلى تارنتوم الواقعة فى جنوب إيطاليا حيث التقى بالعالم الرياضى أرخيتاس زعيم المدرسة الفيثاغورسية الذى جمع بين الفلسفة والرياضة والسياسة والقيادة. وقد أحبه أهل مدينته لدرجة أنهم قاموا بانتخابه حاكماً عليهم سبع مرات. وقادهم فى الحرب على المدن

المحيطة بهم، فرفع شأنهم بالانتصار عليها، وأصبح ناراً على علم. وقد لعب أرخيتاس دوراً كبيراً فى تفكير أفلاطون، خاصة فيما يتصل بعلاقة الحب بين الحاكم والمحكوم التى تجعل من المدينة كلها أسرة متآلفة متناغمة، وصخرة صلبة فى وجه كل من تسول له نفسه انتهاك كرامتها وغزوها للاستيلاء عليها، بحيث رأى أفلاطون فى أرخيتاس تطبيقا عمليا لنظريته فى الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم، وذلك بالإضافة إلى تبحره معه فى قضايا السلوك والأخلاق وخلود النفس، والمسائل الرياضية بفروعها الثلاثة: الحساب والهندسة والموسيقى، وتعرفه على ديون الشاب الذى كان ديونيسوس طاغية سراقوسة فى صقلية الذى أقام أقوى مدينة فى العالم الإغريقى، قد تزوج من أخته.

ويقال إن السبب فى رحيل أفلاطون من جنوب إيطاليا إلى صقلية أنه كان يرغب فى مشاهدة البراكين التى اشتهرت بها وبصرف النظر عن حقيقة هذا الظن، فإن الأمور تطورت بأفلاطون هناك عندما نشأت بينه وبين الشاب ديون علاقة قوية، يصفها أفلاطون فى «الخطاب السابع» بقوله: «كان ديون فى تلك الفترة فى عنفوان شبابه عندما امتدت أواصر الصداقة بينى وبينه، فكنت أصارحه بلا حرج بما أعتقده وما تحتاج إليه الإنسانية من قيم عملية ومبادئ رفيعة. ونصحته بأن يسير على درب هذه القيم والمبادئ. ولم يدر بخلدى قط أننى بهذه التعاليم

كنت أمهد لزوال الطغيان في المستقبل لأنني لم أتصور أنها ستكون مؤثرة إلى هذا الحد، وأن ديون سيتقبل هذه القيم والمبادئ بهذه السرعة. فقد عقد العزم على أن يسلك نهجا مختلفا عن ذلك الذى سلكته الحياة من قبل فى صقلية، وأن يهجر حياة الترف واللذة والرفاهية الجوفاء كى يعمل فى دأب من أجل الخير والحق والحب بين أبناء بلده».

وجرب أفلاطون لأول مرة فى حياته مؤامرات البلاط ودسائسه. فقد بلغت تعاليمه لديون مسامع ديونيسيوس الذى أمر فى الحال بأن يسلب أفلاطون حريته ويتم بيعه فى أسواق العبيد، فهرع أصدقاؤه لنجدته واشتروه ليعيدوه إلى أثينا معززا مكرما. ويقول المؤرخ بلوتارك إن ديونيسيوس قد اعتبر تعاليم أفلاطون نقدا وتعريضا بسياسته الديكتاتورية فقرر أن يجعل منه درسا لكل من تسول له نفسه أن يجرؤ ويتطاول على نهجه فى الحكم. ولم ينقذه من طغيانه سوى ديون وأصدقائه عندما خططوا لسفره على السفينة التى عادت بسفير أسبرطة إلى بلاده. ولم تقف المؤامرة عند هذا الحد إذ كانت عيون ديونيسيوس بالمرصاد لكل شاردة وواردة، فقد أسر إلى سفير إسبرطة بأن يقتل أفلاطون فى الطريق وأن يلقى به فى البحر أو يبيعه لأحد النخاسين الذى يمكن يبيعه بدوره فى بلاد لا يستطيع العودة منها. وبالفعل باعه فى إيجينيا دون أن يدرى لأحد الأصدقاء وهو أنيكيرس السيرينائى الذى اشتراه بثلاثين ميناى،

ثم أرسله إلى أثينا، وقيل إن مجموعة الأصدقاء جمعوا هذا المبلغ ليردوه لأنيكيرس لكنه رفضه بإباء، واشترى به الحديقة المجاورة للأكاديمية التى أنشأها أفلاطون، والتى كانت بمثابة أقدم جامعة فى العالم بعد جامعة عين شمس فى مصر، والتى ظل أفلاطون يشرف عليها عشرين عاما من عام ٣٨٧ إلى ٣٦٧ ق.م حين دعى مرة أخرى للذهاب إلى صقلية.

لم يتحمس أفلاطون للدعوة بعد تجربة الحقد والبطش والكراهية المريرة التى عانى منها على يدى ديونيسيوس لمجرد أنه أبدى آراءه بصراحة من أجل الصالح العام. كان ديونيسيوس الأول قد مات وخلفه ابنه ديونيسيوس الثانى الذى لم يكن يملك خبرة أبيه وتمرسه بألاعيب السياسة ودهائها، فانتهز خاله ديون الفرصة وأرسل يدعو أفلاطون ليقوم بتعليمه وتثقيفه، وتحقيق حلمه الأثير فى إيجاد الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم. تردد أفلاطون فى قبول الدعوة تحت وطأة تجربته المريرة السابقة، لكن حماسه للقيام بعمل إيجابى يتجاوز به حدود التنظير الفلسفى، دفعه إلى أن يحسم أمره فى النهاية. وهو الحماس الذى عبر عنه بقوله: «لقد اعترانى الخجل عندما رأيت فى نفسى مجرد رجل يتشدق بالأفكار والألفاظ دون أن يحقق أى عمل إيجابى، كما تحتم علىّ أن أربأ بنفسى عن التخلى عن مساعدة الصديق العزيز ديون وصحبه الذين ساندونى عندما أحدقت بى الأخطار من كل جانب حتى بلغوا بى بر النجاة، ولابد

أن يكونوا الآن محاطين ببعض الأخطار التى تتهددهم من خصومهم فى البلاط».

ويحكى المؤرخ بلوتارك مراسم استقبال الفيلسوف الكبير فى سراقوسة. فقد أحاطت به قلوب أهل المدينة فى لهفة لترسيخ مبادئ أفلاطون الفلسفية والإنسانية، لعل الحب يحل محل الحقد، والوئام محل الصراع، مما يصلح الأحوال غير الإنسانية فى النهاية. وكانت الهندسة هى أول ما علمه أفلاطون لديونيسيوس إيمانا منه بأنها المدخل الطبيعى للفلسفة، لأنها أساس أى بناء إنسانى واجتماعى. وكان أفلاطون قد كتب على باب الأكاديمية: «من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا». ولابد أنه شرع فى تعليم ديونيسيوس مبادئ القانون والعدالة، ووضع تخطيط لإعادة تنظيم المستعمرات الإغريقية التى بعثرتها الحروب مع قرطاجنة. لكن أفلاطون سرعان ما شعر بعدم ترحيب ديونيسيوس لتعاليمه ومناقشاته الفلسفية، بالإضافة إلى شروع أعداء ديون وصحبه فى تدبير المكائد لهم، خاص المؤرخ فيليستس الذى أقنع ديونيسيوس أن ديون أحضر أفلاطون من أثينا لكى يستحوذ على السلطة لنفسه من خلال انقلاب دستورى يستمد طاقة دفعه من تعاليم أفلاطون وتأثير آرائه الفلسفية التى تسرى بين أبناء المدينة كالنار فى الهشيم. ونجحت المكائد والمؤامرات فى إثارة مخاوف الطاغية الجديد، فسارع إلى نفى ديون إلى خارج صقلية ولم يكن قد مضى على وصول أفلاطون

سوى أربعة شهور. وتوجه ديون إلى أثينا والتحق بالأكاديمية . وكان من الطبيعى أن يفقد أفلاطون أى إحساس بالأمن والطمأنينة فطلب العودة إلى أثينا ورحب ديونيسيوس بطلبه كما لو كان فى لهفة للتخلص من وجوده فى البلاط.

كانت الخلفية التاريخية المواكبة لهذه المرحلة الحاسمة من حياة أفلاطون، متفجرة بالأحقاد والحروب الأهلية التى لا يهدأ أوراها.ففى العشرين سنة بين موت سقراط ورحلة أفلاطون الثانية إلى صقلية، تابع أفلاطون المعارك الدامية والوحشية بين الأخوة اليونانيين حين حاولت أثينا وحليفاتها أن تواصل احتلالها لإسبرطة، لكن إسبرطة استعادت السيطرة من جديد، فتآمرت أثينا وطيبة ضد سيطرتها الجديدة الزاخرة بالعنف والحقد والبطش. لكن طيبة كانت تعمل فى الخفاء لحساب نفسها حتى اشتد ساعدها، فلم تعد أثينا تأمن لها مما اضطرها للتحالف مع إسبرطة ضد سطوة طيبة المتنامية. وبالطبع كان من مصلحة بلاد الفرس أن تزيد هذه النار اشتعالا وتأججا حتى تضمن سيطرتها على بلاد اليونان بحيث لا تقوم لها قائمة بعد ذلك.

واستمرت نيران الحقد والانتقام والغدر فى التأجج لتحرق كل من يعبر طريقها، فساعدت إسبرطة على سحق أثينا، ولما تم لها ذلك حاولت استعادة ما تخلت عنه فى آسيا من قبل. وشرعت منذ عام ٤٠١ ق.م فى مساعدة فيروس الأصغر ضد أخيه أرتاكسيركس، ثم ساندت فى الأعوام التالية اليونانيين

المستوطنين فى آسيا الصغرى ليثوروا ضد تزافرن الوالى الفارسى الذى يحكمهم، فانتشرت نيران الصراعات والقلاقل والاضطرابات فى آسيا الصغرى، لكنه فى عام ٣٩٤ كانت أثينا تتربص بإسبرطة كى تأخذ بثأرها من خيانتها لها وبطشها بها، فتآمرت مع الفرس ضدها، وتم الاتفاق على أن يقود الأسطول الفارسى أمير البحر الأثينى كونون الذى أنزل ضربة قاضية لأسطول إسبرطة فى معركة كنيدا. وهكذا توالت لعبة الكر والفر الدموية بلا رحمة ولا هوادة، لتواصل أثينا مسلسل انتقامها من إسبرطة.

تحالفت أثينا مع طيبة وكورنثوس وأرجوس لتتمكن من زعزعة سلطة إسبرطة التى لا تزال محتفظة بصلابتها برغم هزيمتها البحرية. فهى لا تزال تواصل مؤامراتها بين اليونانيين فى آسيا الصغرى ضد الفرس، وتساعد فيروس الأصغر ضد أخيه أرتاكسيركس، أى أن تأثيرها الخطير بلغ الأسرة الفارسية التى تحكم آسيا الصغرى. ولا شك أن أثينا قامت بتعرية مخططات إسبرطة أمام الفرس الذين قرروا التحالف مع سطوة أثينا المتصاعدة، خاصة بعد تحالفها مع طيبة وكورنثوس وأرجوس، الذى منحها قوة متزايدة واحتياطيا إضافيا. فساعد الفرس أثينا فى إقامة تحصينات منيعة وهائلة، واندمج الأسطول الفارسى مع الأسطول الأثينى تحت قيادة أمير البحر الأثينى

كـونون الذى ضـاعف من قـوته وقطعـه، فـتـمكنت أثينا من السيطرة على مضيق البوسفور.

وبرغم هزيمة إسـبـرطة، فـإنهـا لم تتـوقف عن حـبك الدسـائس وإثارة القلاقل والاضطرابات، حتى لا تترك الفـرصـة سـانحـة لأرتاكسـيركس لـيسـاعـد أثينا على إقامـة إمـبـراطورية جديدة، ظنا منه أنها ستكون أداة قوية وطيعة فى يده لكى يفرض سـيطرته كـاملة علـى آسـيـا الصـغـرى وبلاد اليـونان بأسـرهـا. وضـربت إسـبـرطة علـى وتـر لقى صـدى عنده. ذلك أن أثينا بتاريخهـا الطويل فى الخيانات والدسائس والأحـقاد والأطماع التى لا تعـرف لنفـسهـا حـدودا، لن ترحم أرتاكسـيركس بمجرد قيام إمبراطوريتهـا وسـوف تلتهمه كعادتهـا فى الغدر دائما، ولن تشفع له حينئذ مساندته لها ضد أعدائها. وبالفـعل نجح أنتالكيداس ملك إسـبـرطة عـام ٣٨٦ فى عـقـد مـعـاهدة مـع الفـرس تـعـيـد إليـهم سيـطرتهم على اليونانيين فى آسـيا الصـغرى، فى مقابل منح ما سـمى بالاسـتـقـلال الذاتى لكل المدن اليـونانيـة. وكـان فى هذا، القـضـاء المبـرم علـى كل ألاعـيـب التـحـالفـات التى أجـادتهـا أثينا، واحتـفظت إسبرطة بكيانها القوى الذى كان هـدفها الاسـتـراتيجى دائمـا، فـإذا لم تستـطع المحافظة علـيه بالحـرب والقـوة العـسكرية، فإنها تسـارع إلى توظيف دهـائها السـياسى بالمفاوضـات والمعاهدات والالتقاء فى منتصف الطريق.

لكن النيران المتأججة فى بلاد اليونان لم تكن لتهدأ أو تخمد. فكل هذه المعاهدات والتحالفات لم يكن هدفها السلام والاستقرار، بل كانت مجرد أنواع متعددة من الهدنة المسلحة التى تتيح للأطراف المعنية التقاط الأنفاس اللاهثة، واستعادة القوى المهدرة، والاستعداد لجولات جديدة من الصراعات الدموية. وهى الحقائق التى كانت فى اعتبار حلفاء أثينا غير المتحمسين لها، أما أعداؤها فلم يتخلوا عن التربص بها. فسرعان ما تحققت توقعاتهم عندما حطمت أثينا أسوار مدينة مانتينه، وشردت سكانها فى القرى المحيطة بها، واحتلت قلعة طيبة غدرا وخيانة دون قتال، فاضطرت طيبة إلى أن تنحاز إلى الحلف الإسبرطى. أما أولنثوس التى ارتبطت بمعاهدة حاسمة جدا بأثينا، فقد داست أثينا على المعاهدة واستولت عليها عام ٣٦٩ بعد قتال ضار استمر ثلاث سنوات.

وعندما وجدت أثينا أن طيبة تملك صلابة ومناعة ضد أى غزو خارجى بفضل تكاتف أبنائها، هرعت إليها لعقد اتفاق بحرى يضمن لها سلامة سواحلها من أى هجوم بحرى، خاصة بعد أن نجت من ضربة إسبرطية قاصمة كانت موجهة إليها. لكن أثينا لم تسترح لطيبة التى لم تتوان لحظة فى تدعيم قوتها الذاتية سواء على المستوى العسكرى أو المستوى المدنى، ولخوف أثينا من أن تنقلب عليها طيبة، أسرعت بعقد صلح مع إسبرطة خوفا من قوة طيبة المتزايدة. وهذه المرة لم تتخل أثينا عن إسبرطة عندما

انهارت قوتها بهزيمتها من أبامينذس عن لوكرترس عام ٣٧١، هزيمة أدت إلى غزوها فى عقر دارها، فقد صممت أثينا على شد أزرها، فأرسلت جيشا بقيادة أبيقراط إلى برزخ كورنثوس، وبذلك تحالفت معها تحالفا عمليا ضد طيبة فى ربيع عام ٣٦٩. ورغب حاكم مدينة بريجا الفارسى وديونيسيوس حاكم سراقوسة فى إنقاذ إسبرطة، فعقدا مؤتمر سلام فى دلفى، لكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح، إذ أن طيبة رفضت أن تتخلى عن مكاسبها، بل نجحت فى اكتساب أرثاكسيركس الفارسى إلى جانبها.

وكان من الطبيعى أن تستمر الحرب التى أرهقت كل المدن المشتركة فيها سواء أكانت محاربة بالفعل أم متحالفة وتساهم فى المجهود الحربى ودعم الإمداد. أى أن بلاد اليونان كانت حريصة على أن تقضى على قوتها أولا بأول إلى أن بدأت مرحلة جديدة عام ٣٦٨، عقب التدخل الظافر لجيش طيبة فى مقدونيا التى انضمت إليها، وإرسال البلاط المقدونى لأمير شاب يدعى فيليب إلى مدرسة طيبة العسكرية لإعداده للحياة العسكرية. وكان هذا الشاب هو الذى أنجب الإسكندر الأكبر القائد التاريخى والأسطورى الذى كان بمثابة نقطة تحول مصيرية سواء فى تاريخ اليونان أو تاريخ العالم القديم بأسره.

ولاشك أن أفلاطون كان يتابع بفكره الفلسفى والتحليلى والنقدى ما يدور على الساحة من صراعات ومعارك لا نهاية لها، باحثا عن الأسباب المؤدية إلى كل هذه الوحشية والتدمير والقتل.

فلم يكن للحب الإنسانى أى مكان على هذه الخريطة الملتهبة كالبركان الذى لا يتوقف عن إلقاء حممه على كل ما يحيط به. ويبدو أن هذا الموضوع كان شغله الشاغل الذى ركز عليه قدرته فى التفسير والتحليل والنقد، بحيث لم يعر التفاتا كبيرا إلى الأحداث الحربية والمواقف السياسية الجارية. كانت فى نظره مجرد تداعيات ونتائج لأسباب كامنة وخفية كالبؤرة الصديدية التى تنضح من حين لآخر فتضرب بالعفن فى كل أنحاء الجسد. وكانت هذه الأسباب هى القاعدة الأساسية التى درسها وغطى معظم جوانبها فى معظم محاوراته، خاصة محاورات «الجمهورية»، و«السياسى»، و«القوانين».

وكان «الخطاب السابع» هو الوثيقة الوحيدة المقتضبة التى أرخ فيها أفلاطون لنفسه، لكنه لم يتناول فيه الفترة ما بين عامى ٣٨٨ و ٣٦٧، باستثناء حديث موجز للغاية عن سياسة أثينا الداخلية. ونظرا لأن سقراط كان الشخصية الرئيسية فى معظم المحاورات، فإن معظم ما تناولته من شخصيات ومواقف كان ينتمى إلى الأعوام السابقة على عام ٣٩٩. أما الأحداث التى أعقبت موت سقراط فقد مر عليها مر الكرام. ولا عجب فى هذا لأن أفلاطون لم يكن مؤرخا. كلن باحثا عن الحقيقة المفقودة والضائعة وسط طبول الحرب، وسنابك الخيل، وقعقعة السيوف، واحتراق السفن، وتناثر الدماء، وسقوط الجثث، وأحقاد القلوب، ودسائس القصور، ومكائد الساسة. وفى الوقت نفسه كان باحثا عن مأوى

يمنحه فرصة التفكير المتأنى والتأمل الفلسفى الثاقب بعيدا عن التيارات الجارفة لأرض الواقع المضطرب، فيقول: «إذا كان الإنسان يلجأ إلى أول جدار يحتمى خلفه عندما تباغته عاصفة شديدة من الأتربة والأمطار، فإن الحكيم ينأى بنفسه عن عواصف الظلم والحقد التى تجتاح البشر وتصيبهم بالاضطراب والضياع، فهو سعيد حقا إذا استطاع أن يقيم فى هذا العالم الدنىء دون أن يتلوث بالبغى والعدوان، وهو سعيد أيضا إذا استطاع أن يفصل نفسه عنه وقد تحولت نفسه إلى عالم زاخر بالحب العامر والأمل الجميل الذى يملأ القلب بالطمأنينة والسلام».

ولم يرض أفلاطون بأن تتحول عزلته إلى انغلاق على الذات، بل تحولت إلى انفتاح كامل على المدينة المثالية التى يحلم بأن تتحول إلى واقع، وتحل محل المدن المشتعلة بنيران الأحقاد والصراعات والحروب والمعارك. المدينة التى يسودها النظام ويغمرها الحب والعدالة والسلام، فتنقشع الفوضى، ويتلاشى الحقد، ويندثر الظلم، وتنطفئ نيران الحرب. ولذلك كان مفهوم الحب عند أفلاطون متعدد الأبعاد والأعماق بحيث يشمل علاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة المواطن بالمجتمع، وعلاقة المخلوق بالذات الإلهية. وهو مفهوم أشمل وأعمق بكثير من الفكرة الخاطئة والسائدة عن الحب الأفلاطونى كمجرد مرادف للحب العفيف والعذرى الذى تغنى به الشعراء والأدباء الرومانسيون عبر العصور.

الفصل الثانى

الجنس: آلية للتناسل وتحسين النوع

هذا هو مفهوم الجنس عند أفلاطون. إنه مجرد وسيلة إلى غاية أسمى تتمثل فى التناسل وتحسين النوع من أجل مجتمع إنسانى أرقى. أى أنه آلية لا تضع الأحاسيس والمشاعر والانفعالات والشطحات والآمال والنزعات الشخصية فى الاعتبار، لأن هدفها يتجاوز الرغبة الشخصية إلى نوعية البنية الاجتماعية المنشودة. وهو مفهوم يتناقض جذريا مع مفهوم الحب العذرى والعفيف الذى كان مرادفا للحب الأفلاطونى عبر عصور عديدة.

كان أفلاطون أول باحث ومُنظر فى مجال تحسين النسل، لأنه كان يهدف دائما إلى إيجاد الصفوة القادرة على قيادة المجتمع وتحقيق أهدافه الراقية والسامية. وهذه الصفوة فى نظره، ظاهرة طبيعية، أى موجودة بالفعل، لكن كل ما تفتقر إليه هو أن تجد ما يقويها ويوحد أفرادها. فهو يؤمن أنه يتحتم على الإنسان أن يبدأ بسلالة كبيرة من البشر، وأن يقوم بتربيتهم كما تربى

الماشية والطيور، ذلك أن الأسر التى تكون على رأس الدولة تمثل سلالة يجرى فى دمها الشرف والنبل والحكمة والعفة والعدالة والموضوعية. ولم تلق هذه الفكرة قبولا لدى كثير من المفكرين عبر العصور لأننا لا نستطيع أن نكون على يقين من أن الرجل الذى يولد فى مثل هذه السلالة لابد أن يكون بالضرورة رجلا فاضلا وصالحا وخيرا. فليس من السهل التنبؤ بما ستكون عليه النتائج النهائية لقوانين الوراثة التى لا تزال عاجزة عن التقنين الدقيق للعلاقة المتبادلة بين المولد الطيب والخلق القويم. وخاصة أن أفلاطون نفسه ذكر فى محاوراته كثيرين من الأرستقراطيين الذين كانوا – مع أرستقراطيتهم – مثارا للاحتقار والافتقار إلى ثقة الناس.

ويرى أفلاطون أن مشكلة تحسين النسل يمكن أن تحل بالمحافظة على نقاء بذور أفضل السلالات، ولذلك يتحتم على أفضل الأسر أن تنجب من الأطفال ما يكفى حاجة الدولة، لا أكثر من ذلك. ومع هذا فإن طيب مولد هؤلاء الأطفال لا يكفى، بل لابد من أن تتم تربيتهم بمنتهى العناية والدقة. وقد كان أفلاطون مقتنعا بقيمة التربية فى تكوين الأطفال بحيث خصص شطرا كبيرا من جمهوريته على التربية الاجتماعية والسياسية التى لا تقتصر على الطبقة الحاكمة وحدها.

وفى محاورة «القوانين» التى كتبها أفلاطون فى أخريات حياته يوضح أن «جميع الأشياء تعتمد فى نظر الناس على ثلاث

حاجات أو رغبات، ولابد أن يحسن الناس توظيفها كي تؤدي بهم إلى الفضيلة، وإلا انتهى بهم الأمر إلى الرذيلة». وهذه الحاجات أو الرغبات الثلاث هي الجوع والظمأ - ويبدأ شعور الإنسان بهما منذ ولادته - والشهوة الجنسية التي يأتي الشعور بها متأخرا. ويقرر أفلاطون في محاورة «تيماوس» أنه «إذا كانت الطبيعة البشرية تبدو على صورة ثنائية (مذكر ومؤنث)، فإنه يجب أن تطلق كلمة «الرجل» على أرقى الجنسين». فقد كان أفلاطون يفضل الرجل على المرأة لدرجة أن نظرته إلى المرأة في معظم كتاباته لم تحمل في طياتها أي نوع من التبجيل أو التقدير، وإن كان قد ساوى بينهما في الواجبات والمسئوليات.

وكان أفلاطون طموحا برغم تواضع أدواته العلمية إلى حد كبير، لدرجة أنه في نهاية «القوانين» يبتكر نظرية عن الجنس، تكاد تدخل في باب الخيال العلمي. ويلحق الكتاب ببحث في الأجنة لا أساس علمي له، كما أن فكرة الجنس نفسه قد وجدت في نظره بعد ظهور الخليقة نتيجة للعناد الذي تتميز به الأعضاء التناسلية عند الرجال. يقول:

«منذ البداية تميزت الأعضاء التناسلية في الرجال بالعناد وعدم الطاعة كما لو كانت كائنا أصم لا يسمع للعقل نداء، يحاول أن يتسلط على كل ماعداه، مدفوعا إلى هذا التسلط بشهواته الجامحة، وكذلك الحال في النساء، يضيق لنفس الأسباب ولكن من خلال الرحم الذي هو عبارة عن شيء داخلي يميل أشد الميل

إلى إنجاب الأطفال، ويقلق إذا لبث فترة طويلة بعد موسمه الملائم للإثمار دون أن يحمل ثمرة. ومن ثم يسرى فى أنحاء الجسم، ويسد مسالك الهواء، ويمنع التنفس، ويبعث فى الجسم الضيق، بل يتسبب فى جميع الأمراض التى لا تنداح وتتلاشى إلا عندما تربط الرغبة والحب بين الرجل والمرأة».

وفى جزء آخر من الكتاب نفسه يحلل تأثير الشهوات الجنسية على البشر الذين يتحتم عليهم أن يسيطروا عليها فيقول:

«إذا سيطروا على هذه الشهوات عاشوا فى توازن وعدالة، أما إذا استعبدتهم شهواتهم عاشوا فى رذيلة وظلم. ومن قضى حياته فى عيشة طيبة، عاد ثانية إلى مقره فى نجمه الذى ولد فيه، وعاش مرة أخرى حياة سعيدة تجمع بين التناسب والتجانس. ومن أخطأه التوفيق فى ذلك، تقمص عند ميلاده الثانى طبيعة امرأة. وإذا استمر وهو على هذه الصورة، لا يمنع نفسه من ارتكاب الشر، اعتراه التغير فى كل مرة وفقا لطبيعة فعله، فيتغير إلى صورة حيوان تطابق طبيعة الشر الذى ارتكبه. وفى أثناء التطورات التى تنتابه لا يستطيع أن يتخلص من البلايا المحدقة به، إلا إذا ترك قياده لذلك الذى يكمن فى باطنه، والذى لا يعتوره التغير (العقل)، وعاد ثانية إلى صورته الأصلية المثلى (أى طبيعته الناطقة)، وهو إذا سيطر بالعقل على الكتلة الثقيلة المادية

اللاعقلية التى لحقت به، والتى تتألف من النار والماء والأرض والهواء، عاد إلى مشابهة حالته المثلى الأولى».

وفى نهاية محاورة «تيماوس» عرض أفلاطون آراء مشابهة لهذه الآراء تتصل بتحول الرجال إلى نساء أو إلى حيوانات. كما أوضح على لسان ديوتيما فى محاورة «المأدبة» أن الرغبة الجنسية هى أدنى صورة لميل البشر إلى الخلود. وفى الوقت نفسه أدرك الحاجة إلى الزواج وإنجاب الأطفال، ورأى أن العلاقات الجنسية عند الصفوة يتم ادخارها لمناسبات رسمية معينة، تنظم وفقا لحاجة المدينة إلى النسل. ومن الواضح أن أفلاطون لم يدرك أن الحب بين الأزواج يتضمن على وجه خاص علاقة ود وثيقة وتناغم حميم بين شخصين لا يستطيعان الاستغناء عن بعضهما بعضا لأسباب غير مجرد الزواج وإنجاب الأطفال. فالحب عنده ليس شركة بين قلبين، وحنان دافق، ورقة فياضة يبديها كل منهما نحو قرينه، مما يدحض تماما فكرة الحب الأفلاطونى العذرى العفيف.

لم يدرك أفلاطون أن الحب فى حد ذاته يمكن أن يكون نبعا لخير عظيم وعلى مستويات عديدة، وأن الزواج ليس مجرد إطار لممارسة الارتياح الجنسى وتحسين النسل، وكلما طال أمده كان هذا دليلا على نجاحه وإثماره، وذلك على النقيض من حماس أفلاطون لعقد الزيجات ذات الأمد القصير لمجرد التناسل على نحو ما يفعل القائمون على تربية الماشية والدواجن. فلا قيمة

لغير الزيجات الطويلة المدى فى تنمية الشخصية وإثرائها، وفى تحقيق الانسجام بين الزوجين، وكذلك الوئام السعيد الباقى الذى هو أعظم نعم الحياة؛ فهو المدرسة الدائمة والمتجددة التى يتعلم فيها الإنسان فنون الحياة طوال عمره.

لكن مفهوم أفلاطون للحب كان زاخرا بالتناقض الصارخ، خاصة عندما يحاول أن يصور الرغبات الجنسية فى صورة مثالية تساير التوجه المثالى الذى اشتهرت به فلسفته، خاصة فى «الجمهورية». فهو يتصور دائما وجود نزاع أو صراع بين الروح والجسد الذى ينتصر عادة على الروح فيحيل الإنسان إلى مجرد حيوان منساق تماما إلى غريزته، ولا يهدأ له بال إلا بارتوائها بطريقة أو بأخرى، غير عابئ بأية اعتبارات روحية سامية. أما عندما يتبنى أفلاطون وجهة نظر رومانسية فى الحب، فإنه يفاجئنا بأنه لا يلمس هذه الرومانسية سوى فى الشذوذ الجنسى، وليس فى الميل الطبيعى الذى يقوم بين الرجل والمرأة.

ولعل المفهوم التقليدى الشائع عن الحب الأفلاطونى يرجع إلى ما قالته ديوتيما لسقراط فى محاورة «المأدبة» عندما أبانت أن الحب الحقيقى يتجلى فى الرغبة الملحة فى الاتحاد بالجمال وتأمل المثال عن طريق الروح العظيم الذى تصف ديوتيما وظيفته بأنه:

«يترجم للآلهة وينقل إليهم ما يصدر عن البشر، ويترجم للبشر وينقل إليهم ما يصدر عن الآلهة: صلوات البشر

وقرابينهم، وأوامر الآلهة وحسن جزائها على ما قدم من قرابين. ومن جهة أخرى حيث كانت الأرواح وسطا بين الآلهة والبشر فإنها تملأ ما بينهما من فراغ، وتربط أطراف الكل فى واحد. وهى الوسيط لجميع النبوات، ولفنون الكهنة الخاصة بالقرابين والتلقين والرقى، وجميع ضروب العرافة والسحر، ومع أن الإله لا يمتزج بالإنسان فإنه يمكن الاتصال والتحادث بينهما عن طريق هذه الروح، سواء فى اليقظة أم فى المنام. ويسمى العارف بهذه الأمور رجلا روحانيا، فى حين يسمى العراف بالأمور الأخرى المتصلة بالفنون أو الحرف صانعا، وثمة أرواح كثيرة، وهى ضروب مختلفة، الحب نوع منها».

وتقدم ديوتيما تفسيرها أو مفهومها الأسطورى للحب، وكيف ولد، وكيف تحول إلى حاجة متجددة لا تشبع عندما سكن فى أجساد البشر. والأسطورة فى حد ذاتها مثيرة على المستوى الأدبى، لكنها على المستوى الفلسفى تجسد بعض مفاهيم أفلاطون عن الحب والجمال، تقول ديوتيما:

«إنها قصة لا بأس من روايتها على الرغم من طولها. ففى ليلة مولد أفروديت أقامت الآلهة وليمة احتفالا بذلك العيد، وكان من بينهم فوروس (الغنى) ابن ميتيس (البراعة). ولما كانت الوليمة فخمة فقد جاءت بنيا (الفقر) عند انتهاء العشاء، ووقفت بالباب وقد مدت يدها تطلب الإحسان. وشرب فوروس من رحيق السماء حتى ثمل، إذ لم تكن الخمر قد خلقت بعد. فهام

على وجهه فى حدائق زيوس حتى غلبه النعاس وذهب فى سبات عميق. ورأت بنيا أنها لاتملك شيئا، فخطر ببالها أن تلد من فوروس، واضطجعت إلى جانبه وحملت إيروس (الحب). وبذلك أصبح الحب تابعا لأفروديت وخادمها، لأن حمله حدث فى أثناء الاحتفال بمولدها، ولأنها جميلة، ولأن الجمال هو ما يعشقه الحب بالطبع.

«وبصفة الحب ابناً لكل من فوروس وبنيا، فكانت هذه هى أحواله وخصائصه: إنه فى فقر دائم، لا كما يتوهمه عامة الناس من الرقة والجمال، بل هو على العكس، خشن الطبع، قذر، يمشى حافى القدمين، بلا مأوى، ينام فى العراء عند أبواب الدور أو الطرقات، فقد ورث هذه الطبيعة عن أمه فأصبح يعيش دائما فى احتياج. لكنه فى الوقت نفسه كان قد ورث الغنى عن أبيه، فهو يسعى إلى الحصول على كل ماهو جميل وخير، وهو شجاع، مقدام، متحفز ومستجمع قواه، صائد بارع، لا يتوقف عن نصب الشباك، مولع بالتدبير والتخطيط، واسع الحيلة. وهو بالإضافة إلى كل ذلك شغوف بالحكمة دائما، بارع فى فنون العرافة والسحر والسفسطة. وطبيعته ليست فانية ولا خالدة، لأنه فى اليوم الواحد حى مزدهر تارة، وميت ذابل تارة أخرى، ثم تعود إليه الحياة إذا نال ما يبغى بفضل طبيعة أبيه التى ورثها عنه، ولكن سرعان ما يفقد ما ناله، فلا هو بالغنى أبدا، ولا هو بالفقير أبدا.

«ومن جهة أخرى فهو وسط بين العلم والجهل. وإليك حقيقة أمره: فلا يوجد إله يحب الحكمة أو يشتاق إليها لأن الحكمة موجودة عنده من قبل. والحال كذلك عند كل من يملك هذه الحكمة، فإنه لا يطلبها. وإذا نظرنا إلى الجهلاء رأينا أنهم لا يشتغلون بالحكمة ولا يسعون إلى طلب المعرفة، ذلك أن آفة من ليس جميلا ولا فاضلا ولا عاقلا، يظن فى نفسه أنه يمتلك ما يكفيه من الجمال والخير والعقل. ومن يعتقد أنه ليس فى حاجة إلى شىء، لا يشتاق إلى هذا الشىء الذى لا يظن أنه يفتقده».

هذا هو مفهوم الحب عند أفلاطون. فهو ليس طاقة أثيرية، روحانية، لا تحفل بالجسد والمادة والدنيا، بل هو كيان خشن الطبع، قذر، يمشى حافى القدمين، بلا مأوى، وينام فى العراء عند أبواب الدور أو فى الطرقات. أى أنه يحمل كل الخصائص الدنيوية والمادية التى لا تمنح الإنسان أى نوع من الإشباع، وإذا منحته فذلك لفترة عابرة وقصيرة يعود بعدها إلى جوعه وعطشه وسعيه المحموم وراء إشباع جديد وهكذا. ولو كان الحب بالرقة والجمال والصوفية كما يتصوره بعض الناس لما دفعهم إلى مثل هذا الجوع والعطش والاحتياج الدائم والمتجدد. فهو فى حقيقة أمره وسط بين المثالية الروحية والوضاعة الدنيوية، لكنه فى الوقت نفسه محب للحكمة وهى الخاصية التى استمد منها الفيلسوف لقبه وصفته ووظيفته. ولذلك تقول ديوتيما:

«إن الفلاسفة ليسوا حكماء ولا جهلاء، ولكنهم محبون للحكمة. إنهم المتوسطون بين الدرجتين، والحب أحد هذه المتوسطات. ذلك أن الحكمة من أجمل الأشياء، والحب هو حب الجمال، ومن ثم وجب أن يكون الحب فيلسوفا، ولأنه فيلسوف (محب للحكمة)، فهو متوسط بين الحكيم والجمال. وقد اكتسب هذه الصفات بحكم مولده، فأبوه حكيم واسع الحيلة، وأمه جاهلة وعديمة الحيلة».

أى أن الحب يمثل الدنيا بكل سموها وانحطاطها على حد سواء، ويحمل فى طياته كل المتناقضات التى تدحض فكرة سموه الروحى المطلق. فهو، كأى شىء فى هذه الدنيا، يخضع لكل قوانين النسبية، أى أن طبيعة وجوده تتشكل طبقا لرؤية المحب للمحبوب. تقول ديوتيما لسقراط:

«هذه هى بوجه عام ياعزيزى سقراط طبيعة الحب. أما آراؤك التى ذكرتها عن الحب فلا أستغربها منك. فأنت فيما يبدو من أقوالك تذهب إلى أن الحب هو المحبوب لا المحب. وهذا عندى هو علة اعتقادك أن الحب يبدو لك جميلا جمالا فائقا. ولا ريب أن المحبوب هو ما كان فى الحقيقة جميلا رقيقا كاملا جديرا بألوان السعادة. أما المحب فجوهره، كما بينت لك، مختلف كل الاختلاف».

فالحب ليس نوعا واحدا تواضع كل البشر حوله، ولكنه أنواع متعددة تختلف باختلاف مسمياتها. وهذا يفسر لنا السر

فى أن بعض الناس يحبون، والبعض الآخر لا يحبون برغم أن الحب مشترك بين الناس. ذلك لأننا نطلق اسم الحب على نوع منه فقط، ونسمى أنواعه الأخرى بأسماء أخرى. إنه الحب الجنسى الذى يمثله إيروس أو النفس الشهوانية التى يقتصر موطنها على منطقة البطن أسفل السرة، وكأنها حيوان مفترس، وليس لها عقل ولا فكر ولا عقيدة، وهى منفعلة على الدوام. إنها موطن شهوة الطعام والشراب، والرغبة والحس، واللذة والألم. ومع ذلك فإنه بفضل الصور المتكونة على سطح الكبد فقد يمكنها أن تتصل إلى حد ما بالنفس العليا، فيتم عن طريقها الأحلام والهواجس وغير ذلك من المشاعر الغامضة.

وفى محاورة «تيماوس» يؤكد أفلاطون على وجود نفس أخرى تحت البطن، أو كائن حى مستقل، هو مصدر الحب الشهوانى والاتصال الجنسى، وهذه النفس، أو هذا العضو خارج تماما على أمر العقل. ومع ذلك يؤمن أفلاطون بضرورة سيطرة العقل بقدر الإمكان على شطحات الجنس حتى لا يتساوى الإنسان بالحيوان. فهناك بين النفس العاقلة الخالدة وبين الأنفس الأدنى خلاف فى الطبع، ذلك أن العقل هو مصدر الحركات المنتظمة، محدود بحدود رياضية، كله ترتيب ونظام وجمال. أما الأنفس الأخرى فاضطراب وفوضى لغياب العقل والائتلاف، ولكنها مع ذلك علة الوظائف الفسيولوجية، ولها بالعقل اتصال من نوع ما، فلكل نفس ميدانها ووظائفها لفائدة الإنسان. وينبغى

على كل إنسان أن يحقق وظائفه على الوجه الأكمل والأفضل، وأن يمارس هذه الوظائف حتى لا يضعف الكائن الحي ويفسد. ولذلك نصح أفلاطون بالاعتدال والوسطية، ولم يأمر بالزهد كما يفعل الغلاة من المتصوفة. فهو يؤمن أن كل عضو يقوى بالممارسة، ولابد له من الممارسة لتحقيق وجوده، والعقل أولى بهذه الممارسة لأنه يقوى بالفكر، ويصفو بالتأمل، ويعلو بامعان النظر. أما العواطف الجامحة، والانفعالات الهوجاء، والشطحات العفوية فهى تدخل بالإنسان فى فوضى عارمة، تفقده كل معنى لوجوده.

وكان الإقبال على الخمر - فى نظر أفلاطون - جزءا من هذه الفوضى. فقد كان اليونانيون يتخذون من الشراب مدخلا إلى الاستمتاع بمباهج الحب، وهو حب حسى جنسى. وكانت إسبرطة تحرم الشراب لأنها كانت تهدف إلى انتشار النظام وبث الشجاعة وفضيلة القتال، فى حين يصيب الشراب الشباب بالطراوة والاستهتار بالمسئولية، لكنها كانت مصابة بآفة خلقية تنتشر عادة بين الجيوش وهى الشذوذ الجنسى. فعندما يقضى الشباب معظم حياتهم فى معارك حربية لا تتوقف، بعيدا عن أسرهم وبيوتهم وحياتهم السوية، فمن الطبيعى أن يمارس الجنود الجنس فيما بينهم لتصريف الطاقات المكبوتة. أما أثينا فكانت الفضيلة التى تسعى إلى بثها بين مواطنيها هى ضبط النفس، وهو ما عبر عنه أفلاطون مرارا فى محاوراته. لكن من

الواضح أنها تأثرت بظاهرة الشذوذ الجنسى عن طريق إسبرطة التى كان الشذوذ من جملة تقاليدها، ونظاما يقره الناس فى إسبرطة، ذلك لأن المرأة كانت أقل منزلة من الرجل، وليست جديرة بحبه فى أحيان كثيرة، مما دعا الرجال إلى ممارسة الحب مع الغلمان، بل والتفاخر بإعلان ذلك أمام الآخرين.

ولم يكن مفهوم الحب عند اليونانيين كما نفهمه الآن، وهو ما ينطبق أيضا على مفهوم الصداقة. وربما يعنى مفهوم الصداقة عندهم ما نعنيه الآن بالحب. ففى القرن الخامس قبل الميلاد كانت الصداقة تعنى التماثل فى الأخلاق أو التجاذب بين الأضداد، وهى رابطة طبيعية وشاملة، تسرى بين جميع الكائنات ومنها الإنسان. لكن أفلاطون أراد أن يخرج من النطاق الطبيعى والحسى للصداقة إلى المجال الروحى والأخلاقى، وتحدث فى محاورة «ليسيس» عن المحبوب الذى هو أصل كل صداقة ومنبع كل صلة بين الناس. والمحبوب الأول هو الخير الذى ينطوى على أسمى القيم، كذلك فإن الصداقة طاقة عظيمة فى بناء المدينة وعلاج المجتمع الفاسد، لأنها كفيلة ببث روح الحب والتآلف والتعاون بين أفراد أية تجمع بشرى بحيث يشتركون فى توجهات متناغمة تجعل منهم القلب النابض والنواة الصلبة التى ينهض عليها المجتمع المستقر المزدهر. وكان أفلاطون يهدف بهذا إلى استخدام الصداقة والحب كسلاح يحارب به عوامل الفساد والحقد والانتقام والتدمير

والكراهية التى كانت متفشية بين المدن اليونانية وفى مقدمتها وطنه أثينا.

وقد ألمح أفلاطون إلى الصداقة الروحية التى لا تقترن برغبة جنسية مما ساعد على انتشار المفهوم التقليدى الذى يربط بين الحب الأفلاطونى والصداقة الروحية التى يمكن أن تقوم بين رجل وامرأة. لكن سرعان ما يثبت خطل هذا المفهوم عندما نعرف أن أفلاطون رحب بقيام صداقة روحية بين رجل وصبى، فكان الحب الأفلاطونى عنده إعلاء للواط أو الشذوذ الجنسى بين الرجال، بل إنه يقول فى محاورة «المأدبة» إن الحب الصادق لا يتحقق إلا عندما يحب الرجل غلاما.

ومهما قال أفلاطون عن الصداقة الروحية المتسامية بين رجل وغلام، فإن قوله مردود عليه لأنه حصر مثل هذه الصداقة فى علاقة لابد أن تكون مشبوهة، فى حين أن خصائصها الروحية المتسامية كفيلة بجعلها بوتقة تنصهر فيها كل المعادن النفيسة التى جبل عليها البشر، بصرف النظر عن جنسهم أو أعمارهم أو طبقاتهم أو أية فوارق أخرى فيما بينهم. من هنا كانت تهمة الشذوذ الجنسى التى التصقت بأفلاطون عبر العصور برغم عدم وجود دليل مادى ملموس على أنه كان ممن يزاولون اللواط بالمعنى الفعلى. فهو لم يتزوج أبدا، وفى الحالات القليلة التى تحدث فيها عن العلاقات الجنسية التى تقوم بين الرجال والنساء، كان حديثه مجرد من كل عاطفة وكأنه يتحدث عن العمليات

الجنسية التى تجرى بين الذكور والإناث من الحيوانات. فقد كان من الواضح أنه يدخر مشاعره الحميمة وأحاسيسه المتدفقة عند الحديث عن العلاقات الشاذة بين بنى جنسه.

أما حديثه عن المرأة الذى تكرر مرارا فى حواراته، فكان ينم عن بغض حقيقى لها واشمئزاز واضح من صنفها. بل إنه اعترف صراحة فى وصفه لسلوكيات زوجة سقراط بأنه كاره للنساء. صحيح أن زوجة سقراط اشتهرت فى التاريخ بأنها زوجة كريهة وبشعة وقميئة، لكن هذا ليس مبررا لكراهية الجنس بأسره. كذلك فإن سقراط نفسه لم يسلم من تلميح أفلاطون بأنه كان على علاقة حب مع الشاب الجميل ألقبيادس وذلك فى محاورة «المأدبة». لكن ألقبيادس فى المحاورة نفسها برأ سقراط من هذه التهمة، وأكد على أن علاقته به ليست سوى ذلك النوع من الحب السامى. لكن هذا الحكم بالبراءة لا ينفى أن أفلاطون كان مولعا بالحديث عن كل مظاهر الشذوذ الجنسى، حتى لو كانت من بنات أفكاره وتخيلاته وإسقاطاته الخاصة التى يحلو له أن يجترها.

من هنا كانت المفارقة الصارخة بين الجوانب المهذبة، الرقيقة، المتسامية، المثالية فى فلسفة أفلاطون وبين العناصر الحسية، والجنسية، بل والشاذة التى ألحت على كثير من محاوراته، وكتب عنها بحماس لا يصدر إلا عن رجل شاذ جنسيا. فقد احتقر المرأة وأهدر قدسية الزواج الذى أحاله إلى مجرد

مزرعة أو معمل لتوليد الأجيال الجديدة التى لا ترتقى كثيرا عن أسلوب توليد الحيوانات، كما أوضح فى محاورة «الجمهورية» التى أباح فيها بمنتهى الصراحة والإباحية شيوعية الزوجات بين الرجال، والأطفال بين الآباء والأمهات، محطما بذلك قداسة الكيان الأسرى الذى أثبت أنه النواة الصلبة لقيام المجتمعات الإنسانية الراقية عبر العصور.

إن مواليد جمهورية أفلاطون هم ثمرة للتزاوج المشاع، فيتصل خير الرجال بخير النساء جسدا وعقلا، تحقيقا لغرض واحد، هو إنجاب نسل رفيع يستطيع أن يقيم بنيان المجتمع على أساس متين، وأن يدافع عن الوطن ضد هجمات الأعداء وغزواتهم. ويبدو أنه كان من الطبيعى أن يفكر أفلاطون على هذا النهج فى إطار زمنه الذى عاش فيه اليونانيون تحت التهديد المستمر للمعارك الدامية والحروب التى انتهكت كل الحرمات وقضت على زهرة الشباب، بحيث أصبح التزاوج مجرد وسيلة منظمة وحاسمة وسريعة وعابرة لإنتاج سلالات سليمة من الشباب القادر على الدفاع عن وطنه. ففى ظل هذا النظام الذى تصوره أفلاطون فى جمهوريته تكون النساء للرجال على الشيوع. فالجمهورية لا تعترف بالزواج الفردى والكيان الأسرى الخاص. ولا يكاد الأطفال يولدون حتى يعزلوا عن آبائهم ويودعوا محاضن الدولة، إذ يجب ألا يعرف الآباء أبناءهم، ولا الأبناء آباءهم. وبهذه الوسيلة، دون سواها، تستطيع الأخوة الوطنية أو

القومية أو العمومية أن تنتقل من عالم النظريات المجردة إلى الواقع المادى الملموس. فكل فرد فى هذه المدينة أو الدولة يمكن أن يعد أخا لأى مواطن آخر دون أى اعتبار لرابطة الدم التقليدية.

وليس على الآباء أن يقصروا نشاطهم الجنسى على شركاء تم تخصيصهم لهم، إذ أن لهم الحق، بعد أن ينجبوا أطفالا للدولة، أن يتحللوا من هذا القيد بشرط أن يبذلوا قصارى جهدهم فى إجهاض أى جنين يمكن أن يخرج إلى الحياة بهذا الأسلوب المنافى لنظام الجمهورية. ذلك أن حرية ممارسة الحب متروكة لتقدير المواطن، ذكرا كان أو أنثى، لأن حياة المواطنين الخاصة ملك لهم، وتحتوى على مساحة ليست من أعمال الدولة أو اختصاصها. لكن هذه المساحة لا تعنى الخروج على نظام الدولة فى سعيهم نحو إشباع سعادتهم الفردية، ففى النهاية تأتى إرادة الدولة قبل إرادة المواطن الذى تخضع حريته للقيود التى تضعها الدولة. فليس من حق أى مواطن أن ينجب أطفالا، لم تخطط الدولة لميلادهم، بحجة أنهم ثمرة الحب الجارف بينه وبين حبيبته. فالدولة ترى وتعرف ما لا يستطيع المواطنون أن يروه ويعرفوه. يقول أفلاطون على لسان سقراط فى «الجمهورية»:

«فلننظر أولا فى نوع الحياة التى يحياها الناس الذين تم إعدادهم طبقا للخطة. إنهم يجنون ذرة وكروما، ويصنعون ثيابا وأحذية، ويشيدون لأنفسهم بيوتا، ويمكنهم العمل صيفا معظم الوقت بدون أحذية، ولا ملابس. أما فى الشتاء فيمدون بما

يلزمهم منها، ويتغذون على القمح والشعير، ويصنعون الخبز والكعك، وينشرون الخبز الجيد والكعك اللذيذ على حصر منسوجة من القش، أو على أوراق الأشجار النظيفة، ويجلسون على أسرة مصنوعة من أغصان السرو والآس، ويتمتعون بصفاء العيش مع أولادهم، راشفين الشراب، مكللين بالغار، مسبحين الآلهة، معاشرين بعضهم بعضا بسلام. ولا يلدون أكثر مما يستطيعون أن يعولوا، خوفا من الفقر الذى يغرى الآخرين بمحاربتهم».

ويرى أفلاطون أن الدولة تتحكم فى النسل ليس لأنها تحب أن تمارس الطغيان على حياة الأفراد، ولكن لأنها حريصة على سعادتهم. فلا يعقل أن يستمتع المواطن بلحظات من المتعة الجنسية، مجرد لحظات عابرة، ثم تكون النتيجة أن ينجب أطفالا يتحولون إلى عالة على الدولة التى يجب أن تتفرغ لاستقرار النظام داخلها، وللدفاع عن أمنها القومى خارجها. فإذا كانت الدولة قد سمحت للمواطنين بممارسة الجنس ومتعه، فيجب ألا تترتب أية نتائج أو تداعيات أو مسئوليات على الدولة من جراء هذه الممارسة. وربما كان هذا التوجه حجة يبرر بها أفلاطون سماحه أو حماسه لممارسة الشذوذ الجنسى بحكم أنه لا يؤدى إلى إنجاب أطفال لا تريدهم الدولة.

وقد يذهل القارئ وهو يرى فيلسوفا كبيرا فى قامة أفلاطون وهو يكتب بهذه البساطة بل والإباحية عن هذه

الانحرافات الجنسية، وكأنها ظواهر أو أمور طبيعية يمكن استغلالها فى تنظيم جمهوريته المثالية. لكن إذا أخذ أفلاطون فى إطاره الزمنى فسوف يزول ذهول القارئ الذى ينفصل عنه بأكثر من ثلاثة وعشرين قرنا من الزمان. كان أفلاطون يكتب فى جو وثنى يسوده الانحراف الجنسى والسعى وراء كل متع المادة والجسد بلا أى حرج أو حساسيات أو شعور بالذنب. كما أن النظرة المتدنية إلى المرأة، التى سادت عصره، لم تجعل منها مخلوقا أثيريا ومصدرا للإلهام بالحب والجمال والنشوة، لدرجة أن الفتى كان يفخر بعلاقته بأى غلام ليدلل على عراقة أصله ونبل منبته. وهى العلاقة التى ادعى أفلاطون أن التسامى بها يؤدى إلى أروع أنواع الحب، فى حين أنه يرى فى المرأة مجرد خادمة أو أداة لتصريف الرغبات الجنسية الطارئة والعابرة للرجل، بل إنه وصفها فى «الجمهورية» بأنها لم تخلق إلا للندب والعويل وإثارة روح الكآبة التى تفت فى عضد الرجال.

هنا يعود السؤال الملح ليفرض نفسه على ذهن القارئ بشدة: كيف ساد المفهوم التقليدى للحب الأفلاطونى بهذا الشكل برغم خطئه وتناقضه الصارخ مع حقيقة توجهه؟ كان وراء الاستقصاء عن أسباب هذا التناقض أربعة من كبار الدارسين والباحثين هم وارنر فايت فى كتابه «الخرافة الأفلاطونية» الذى صدر عن دار سكيبنر فى نيويورك عام ١٩٣٤، وديفيد مور روبنسون وإدوارد جيمس فلاك فى كتابهما «دراسة فى أنواع

الحب الإغريقى بما فيها الفحشاء» الصادر عن مطبعة جامعة جون هوبكنز بمدينة بالتيمور الأمريكية عام ١٩٣٧، وهانز كيلسن فى كتابه «صورة أمريكية للحب الأفلاطونى» الصادر فى بوسطن عام ١٩٤٢. فقد أثبت هؤلاء الباحثون مدى الزيف الذى مارسه شراح أفلاطون ومفسروه فيما يتصل بمفهوم الحب الأفلاطونى. فأكثرهم آثروا أن يسدلوا ستارا على انحرافه الجنسى، كما أسدلوا الستار على شيوعيته ضاربين بالأمانة العلمية والمصداقية التفسيرية عرض الحائط، خاصة من نقلوا محاوراته إلى اللغة الإنجليزية. قد يكون هدف بعضهم عدم رغبته فى تشويه صورة أفلاطون فى نظر أجيال الشباب حتى لايسيروا على نهج توجهاته الفاسدة، أو إبراز الجوانب الإيجابية والمثمرة من فلسفته للاستفادة بها كقوة دفع إلى الأمام. ومع ذلك تظل هذه الحجج واهية وغير مقنعة وزاخرة بالإستهانة بعقول الشباب. ذلك أن الأمانة العلمية تحتم التفسير الموضوعى المحايد للقضايا والمفاهيم والمواقف المطروحة للبحث، وإذا كان للباحث رأى أو توجه أو تحليل خاص به، فليقله بمنتهى الوضوح، فهذا حقه وهذه هى إضافته إلى الدراسات المتعلقة بموضوعه، ولكن بعد أن يكون قد طرح كل جوانبه وأبعاده، بما فيها تلك التى يعارضها ويرفضها. ذلك أن من حق القارئ أن يلم بكل أبعاد الموضوع السلبية والإيجابية على حد سواء، حتى يكون منظوره الخاص به، حتى لو تعارض مع منظور الباحث. فالأمانة العلمية

ترى فى اختلاف الآراء والتحليلات خير وسيلة لبلوغ الحقيقة الموضوعية.

فى هذه الكتب الثلاثة أثبت الباحثون أن كل من نقلوا محاورات أفلاطون إلى الإنجليزية على وجه الخصوص، أخفوا الشواهد الدالة على انحرافه الجنسى، لأن كلمة «محبوب» فى الإنجليزية يمكن أن يراد بها المرأة، كما يراد بها الرجل، وعند اليونان اسم مفعول مذكر، وبالتالى لم تدع اللغة اليونانية للغموض مجالا. وفى إمكان المترجمين والمفسرين أن يبرروا حرصهم على الفضيلة وخوفهم على أخلاق الشباب من الانحراف، ومع ذلك يمكن القول بأن رفض ترجمة نص، وإسقاطه كلية من الدراسة والتحليل، وتجاهله تماما، أفضل ألف مرة من إساءة تأويله عن عمد، فليس هناك عذر مقبول يبرر الأكاذيب أيا كانت، بل إن الأكاذيب التى تستخدم لإشاعة مثالية زائفة باطلة هى أسوأ الأكاذيب جميعها. فلا يملك أحد من الباحثين حق فرض أى نوع من الوصاية على عقول قرائه، فالمعرفة ملك للجميع، ولكل الحق فى أن يعرف وأن يكون رأيه الخاص به. والمبدأ العربى الحضارى العظيم «لاحياء فى العلم» هو خير نبراس للأمانة العلمية والبحث الموضوعى. وهو المبدأ الذى نسعى لتطبيقه فى هذا الكتاب، خاصة فيما يتصل بأكذوبة الحب الأفلاطونى.

وكان أفلاطون نفسه مراوغا فى التعبير عن آرائه. فهو لم يكتبها مباشرة وبصراحة ووضوح، بل ابتكر أسلوب المحاورات التى دارت بين شخصيات حقيقية وليست خيالية، وفى مقدمتها شخصية أستاذه سقراط الذى لم يؤلف كتبا سجل فيها آراءه، بل اكتفى بالمجادلات التى دارت بينه وبين أهالى أثينا، خاصة الشباب منهم، والتى كانت تعتمد على إثارة التساؤلات والتأملات والمناقشات أكثر من بحثها عن إجابات مريحة. كان سقراط يهدف إلى تعليم أهالى أثينا فريضة التفكير الموضوعى الخالى من كل انحيازات سابقة وقوالب محفوظة. لكن أفلاطون اتخذ من سقراط مجرد بوق له أو قناع يختفى خلفه لكى يبث آراءه هو فى الحب والجنس والسياسة والأخلاق والتربية بحيث تلاشت الحدود بين فلسفة كل منهما. ويبدو أن أفلاطون قد قرر تجنب المحنة التى مر بها سقراط وأدت إلى إعدامه بعد اتهامه بالإلحاد وإفساد أخلاق الشباب الأثينى، فتخفى بدوره وراء المحاورات على أساس أنها آراء المتحاورين وليست آراءه هو.

من الواضح أن أفلاطون خان أستاذه سقراط، بوضع آراء على لسانه لاتنتمى إلى توجهه الفكرى والفلسفى والإنسانى بصلة، وذلك برغم أنه كان مرشده الأول الذى غمره بكل الحب والمساعدة والتوجيه والتبصير. لقد جعل أفلاطون أستاذه القديم يقول عكس ما علمه، لدرجة أنه يمكن القول بأن خداع النفس عنده بلغ حدا لم يستطع معه أن يميز بين سقراط الحقيقى،

وسقراط الذى خلقه وهمه، خاصة فيما يتصل بمفهومى الحب والديمقراطية عنده. وربما تساءل البعض عن كيفية وضع الحد الأدنى للتفرقة بين آراء كل من سقراط وأفلاطون، خاصة أن سقراط لم يسجلها فى كتاب، والإجابة على هذا السؤال تكمن فى أن سقراط الحقيقى هو الذى يتفق عليه أفلاطون نفسه ومعه كسينوفون، والذى كشفت عن عبقريته المحاورات السقراطية الأولى التى كتبها أفلاطون.

ولم تكن هذه هى الخيانة الوحيدة التى ارتكبها أفلاطون فى حق أستاذه، بل فعل ما هو أسوأ منها. فقد عرض فى مؤلفاته الأخيرة صورة هزلية لسقراط كانت تشويها معيبا له. فقد أنطقه بآرائه فى الجنس والحب والسياسة والتربية وغيرها من توجهاته الشمولية والديكتاتورية بل والشيوعية، فى حين أن سقراط كان ديمقراطيا ، مؤمنا بالنزعة الفردية، داعيا إلى المساواة وحق الإنسان فى أن يمارس حياته الخاصة كما يحب، خاصة فى علاقاته مع الجنس الآخر، وكذلك حياته العامة فى علاقاته مع المؤسسة الحاكمة. وقد صار أفلاطون بالتدريج على نقيضه من كل هذا. كان هم سقراط الأكبر أن يعلم الإنسان كيف يحاسب نفسه بنفسه قبل أن يحاسب الآخرين، وكان على استعداد دائم للاعتراف بجهله. أما أفلاطون فعلى النقيض من ذلك تماما. كان الفيلسوف الذى فرض منهجه على أشد العلاقات الإنسانية خصوصية وحميمية، ونادى بحق الدولة فى اقتحامها وصياغتها

على النحو الذى تحدده دون مناقشة أو اعتراض من المواطنين الذين هم فى حقيقتهم أصحاب الشأن الحقيقيين. كذلك كان أفلاطون المقنن الذى عرف الملك الفيلسوف أو الفيلسوف الملك بأن طاعته واجبة فى كل الأحوال دون مناقشة أو حتى مجرد تساؤل.

وقد ظل أفلاطون طوال قرون وعصور متعاقبة ذاتا مصونة لا تمس فى الفكر الغربى. ولابد أن نعترف أن هذه الصورة المثالية له انتقلت إلى الفكر العربى، إذ من النادر أن نجد مفكرا أو فيلسوفا عربيا أو شرقيا، قديما أو حديثا، قام بتعرية أفلاطون على حقيقته. ويبدو أن التقليد العربى أو الشرقى الذى يثير حساسية زائدة عن الحد عند مهاجمة الشخصيات الشهيرة والتاريخية، قد منع كتابنا ومفكرينا من تعرية شخصية فى قامة أفلاطون. فأى كاتب يقوم بهذه المهمة لابد أن يواجه بالسؤال الشائك المحرج: من أنت حتى تهاجم أفلاطون؟! وخاصة أن مفكرى أوروبا وأمريكا اعترفوا بأن أحدا لا يستطيع أن يسيئ الظن به من غير أن يعرض نفسه لسوء الظن، ويصبح عقبة فى سبيل فهمه واستيعابه. لكننا فى هذا الكتاب، تخلصنا من الحساسية التقليدية التى تصيب كتابنا بالحرج، طالما أن مرجعنا فى هذه الرؤية النقدية والتحليلية هو نصوص أفلاطون نفسه بصفة عامة، ومعالجاته لموضوع الحب والجنس بصفة خاصة.

فلاشك أن أفلاطون أحاطته أساطير وخرافات عديدة، وخاصة أنه لم يكن فيلسوفا صرفا، بل كان أديبا وشاعرا ومنظرا للفن والنقد، ولذلك ابتعد في كثير من الأحيان عن الدقة الفلسفية إلى الشطحات الأدبية. ويقول وارنر فايت في كتابه «الخرافة الأفلاطونية» إن لغة أفلاطون كانت من الجمال وصعوبة الفهم بحيث أعاقت فهم مضمونها واستيعابه على الوجه الصحيح. فكانت النتيجة أن ظن الشراح والمفسرون أن جمال الأسلوب هو الحكمة، والغموض هو العمق، وانتهى الأمر بأن احتل أفلاطون في الثقافة اليونانية مكانا ملحوظا يكاد يكون شبيها بمكانة هوميروس، خاصة في مجال تأثيره في التربية اليونانية.

وعلى الرغم من أن أفلاطون سعى إلى طمس النزعات الفردية والحياة الخاصة للمواطنين، ووضعها تحت رحمة سطوة الدولة، وبالتالي لا يمكن اعتباره صاحب نزعة إنسانية صادقة، تجعل من الحياة الخاصة محرابا لايطأه سوى صاحبها، فإن دعاة النزعة الإنسانية في بيزنطة في العصور الوسطى وفلورنسا في عصر النهضة اعتبروه أستاذهم ورائدهم. وكانوا على يقين من إيمانهم هذا، ومتحفزين للدفاع عنه لدرجة أنهم كانوا يرفضون دائما أن يبحثوا في مؤلفاته عن الأدلة الناطقة التي تشهد بافتقاره إلى النزعة الإنسانية التي تحترم الإنسان بكل إيجابياته وسلبياته، بكل مكامن قوته وثغرات ضعفه، بكل حقه في حياة خاصة به لا تملك الدولة أن تقحم نفسها فيها.

كان من حق أفلاطون أن يبدى ما تراءى له من أفكار وآراء، وليس من حق أحد أن يمنعه أو يصادره. لكن ليس من حق الشراح والمفسرين أن يحرفوا أفكاره حتى يجنبوه النقد وشجب أفكاره، فهم فى هذه الحالة أجدر بالنقد وشجب تأويلهم وتحريفهم لفلسفته. خاصة أن هذا التأويل المغرض والكاذب أدى بالمعلمين الذين قاموا بمهمة تربية حكام بلادهم إلى التحمس لدعاوى أفلاطون الأرستقراطية ومناداته بأساليب الحكم الاستبدادى، وهو ما لاقى هوى فى نفوس هؤلاء الحكام عندما أمسكوا بزمام الأمور فى بلادهم. فقد تجاهل أو تعامى هؤلاء المربون أو المعلمون عن أفكاره عن شيوعية الممارسات الجنسية والشذوذ الجنسى، واحتقار النساء واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة بعد درجات السيادة التى يحتلها الرجال سواء عن جدارة أو ادعاء وزيف. ولا شك أن هؤلاء المعلمين كانوا من العلم والثقافة والدراية بحيث لا تغيب عن مظنتهم المثالب الأفلاطونية التى كانت بمثابة قوى الدفع التى ساهمت فى إقامة كثير من الديكتاتوريات عبر العصور التى شهدت من المآسى والجرائم فى حق البشرية ما يصعب على الحصر.

وعندما تأتى سيرة النساء يرفع أفلاطون شعارات الفضيلة والعفة، لكن عند صداقة الغلمان فكل شىء عنده على ما يرام، لدرجة أن الألحان الرقيقة العذبة المثيرة للخيال والتأمل يصفها بأنها ألحان أنثوية لا تليق بالرجال. ولذلك فالألحان الجديرة

بالعزف هى الألحان التى تعمل على تهذيب رجال الحرب. يقول على لسان سقراط فى «الجمهورية»:

«أنا لا أعرف الألحان. ولكن أترك لى اللحن الخاص الذى يمثل رنة صوت الجندى الشجاع وهديره فى حملة حربية، وفى اقتحام المخاطر الشديدة، حين يضع الجندى روحه على كفه، إذا يئس من الفوز، أو إذا أصيب بالجراح، وأشرف على الموت، أو نزلت به أية كارثة. تراه فى كل هذه الملمات يدفع نوازل القدر بعزيمة لا تخور».

فكل شىء عند أفلاطون مسخر فى خدمة الدولة، حتى الموسيقى، فى حين تفترض الديمقراطية فى الدولة أن تكون فى خدمة المواطن وكل ما يسعده من مظاهر الجمال والحب والفن والموسيقى. وطالما أن كل شىء مسخر بهذا الشكل، فإنه بالتالى مشاع. حتى الإنسان فى جمهورية أفلاطون لا يملك سوى جسده، أما فيما عدا هذا فلا تعرف الملكية إليه طريقا. بل إن هذا الجسد ليس ملكه إذا رأت الدولة أن تستخدمه بطريقة معينة لإنجاب شباب لها يمكن أن تجعل منهم وقودا لآلة الحرب الجهنمية، خاصة إذا كانت شروط القوة والصحة والعافية والفتوة تتوافر فى مثل هذا الجسد.

وتكاد جمهورية أفلاطون تنكر حقوق الإنسان تماما، فى حين أنها تفرض عليه فى كل خطوة يخطوها واجبات لا حصر

لها. وهذا التوجه واضح فى الكتاب الخامس من «الجمهورية» الذى يدور حول المسألة الجنسية. فهو يضع النساء فى مرتبة أدنى بكثير من الرجال، أى أنه يسلبهم حق المساواة الإنسانية، لكنه فى الوقت نفسه يذهب إلى وجوب تهذيب النساء وتدريبهن كالرجال تماما، لأنه يرى أن المرأة تستطيع أن تتقن فن الموسيقى والتدريبات الرياضية كالرجال تماما، وفيها ما فيه من الكفاءة فى مختلف المجالات والأعمال. وينحصر الفرق بين الجنسين فى الدرجة دون النوع، وسببه ضعفها إذا قيست بالرجل. فالنساء اللاتى يبدين ميلا إلى الفلسفة أو الحرب، يجب أن يخدمن الحكام أو المساعدين، ويشاركنهم فى واجباتهم، ويمكن أن يصرن أزواجا لهم. أما العلاقات المتبادلة بين الجنسين فلابد أن توضع تحت رقابة القضاء، وأن تقنن بإجراء مراسم دينية وإدارية محددة. وعندما ينتج الزواج أطفالا لابد أن يكونوا أصحاء، يتحتم فصلهم عن والديهم فى الحال ونقلهم إلى المحاضن والمرضعات والمربيات المعتمدات، ثم المعاهد المتخصصة الرسمية التى تنشئها الدولة. بهذه الوسيلة وحدها يمكن أن يتحرر الحكام ومساعدوهم من كل ميل للملكية، وأن يتفرغوا تماما لإدارة شئون الدولة. فليست هناك هموم أسرية أو وشائج خاصة يمكن أن تشغل بالهم وتشتت تفكيرهم بعيدا عن أداء واجباتهم. ولذلك فالحب والجنس والزواج والإنجاب كلها أدوات توظفها الدولة لتحقيق أغراضها القريبة والبعيدة على حد سواء.

ويدير أفلاطون حوارا بين سقراط وصديقيه أديمنتس وجلوكون أخوى أفلاطون، يعبر فيه عن إصراره على ضرورة غياب الملكية، بحيث يصبح كل شيء مشاعا بين الأصحاب. وهو مبدأ لا ينطبق على العقارات والجمادات والأشياء فحسب، بل ينطبق أيضا على النساء والأولاد:

«أديمنتس: يلوح لنا أنك تحجم عن مناقشة جانب مهم من الحديث، رغبة منك فى تجنب إبداء رأيك. فأنت تتوهم أننا غير منتبهين لتجاوزك وتجاهلك له، مكتفيا بإشارة عابرة إليها، عبرت بها عن القاعدة القائلة بأن «كل شيء مشاع بين الأصحاب، يمكن تطبيقها على النساء والأولاد».

سقراط: ألست مصيبا فى ذلك؟

أديمنتس: نعم، لكن استخدامك لكلمة «مصيبا» هنا يفتقر إلى التحديد والتوضيح، مثل أية كلمة أخرى. فلابد أن نعرف بأية طريقة من الطرق العديدة الممكنة، تطبق هذه الشيوعية. فلا تتقاعس عن إحاطتنا علما بالطرق التى تقترحها. فطالما توقعنا أنك تقنن الحالات والطرق التى يولد الأطفال بها، ثم طريقة تربيتهم بعد ولادتهم. ومن الأفضل أن تشرح لنا شيوعية النساء والأولاد التى تعنيها وصفا تاما، لأننا نرى أن لتطبيق هذه النظرية، خطأ كانت أو صوابا، علاقة كبيرة بحياة الدولة».

ثم يحمل أفلاطون سقراط ما لا يمت لاتجاهاته وآرائه بصلة. فلم يسجل التاريخ لسقراط أنه نادى بشيوع النساء والأولاد بين الرجال. ومما هو جدير بالملاحظة أن جميع مؤلفات أفلاطون - ما عدا «الدفاع» والرسائل المشكوك فى صحة نسبتها إليه - قد وضعت فى صورة محاورات، وهى كما نعلم كانت الطريقة المثلى التى عبر بها أفلاطون عن آرائه. ذلك أن المحاورة تعين الكاتب على أن يصور مختلف جوانب الموضوع ويحللها بإسهاب، بل وتساعده على أن يعلق حكمه أو يخفيه عن القارئ على الأقل. ولذلك نجد فى مؤلفات أفلاطون محاورات لا تحسم موضوعا ولا تنتهى إلى نتيجة مثل محاورة «بروتاجوراس».

ويبدو سقراط شخصية من شخصيات المأسى فى جميع المحاورات، ما عدا «القوانين» آخر محاورات ومؤلفات أفلاطون، كما يظهر فى محاوات «بارمنيدس»، و«السوفسطائى»، و«السياسى»، و«تيمايوس» بصورة ثانوية. أما فى المحاورات السقراطية الأولى فهو المتكلم الرئيسى، وهى المحاورات التى يشعر قارئها أنه ينصت إلى سقراط الحقيقى. أما مجموعة المحاورات التالية التى تضم «بروتاجوراس»، و«جورجياس»، و«فيدروس»، و«المأدبة»، و«الجمهورية»، و«فيدون»، فنرى فيها سقراط الأفلاطونى أو القناع السقراطى الذى يختفى خلفه أفلاطون لكى يقول ما يحلو له من أفكار أو آراء سواء أكانت تتفق مع فلسفة سقراط أم تتعارض معها تماما. ويبدو فيها الحوار

عادة مشوها ومنقوصا ومبتورا، يتوقف أحيانا، وينقطع أحيانا أخرى نتيجة لعرض طويل جدا أشبه بالمحاضرات المسهبة، أو لسرد بعض الحكايات والأساطير، ويكاد يختفى المتكلمون الآخرون وينساهم القراء تماما. وإذا كان أسلوب الحوار يساعد المتكلمين على إيراد الحجج والبراهين والأدلة من زوايا متعددة، ويتيح لهم أن يقلبوا الموضوع المطروح على مختلف وجوهه، لكن أفلاطون يستخدم هذه الإمكانات للخداع والمراوغة لإبداء آرائه وليس لإبراز الحقيقة الموضوعية كما يراها المتحاورون عن حق. وكثير من المحاورات، لاسيما تلك التى تدور حول السياسة والجنس والحب والتربية، تتسم بطابع جازم حاسم بقدر الإمكان لفرض رأى أفلاطون على المتحاورين برغم أنه لا يبرز مباشرة وصراحة بشخصه.

من هذا المنطلق يجب أن نفهم آراء سقراط التى وردت فى المحاورات عن شيوع الزوجات والأولاد بين الرجال، فهى آراء أفلاطون فى حقيقة أمرها كما نجد فى محاورة «الجمهورية»:

«سقراط: بعد ما شرحنا دور الرجال، نشرع فى شرح دور النساء.... إن الخطة المثلى فى مذهبى فى أمر اقتناء الزوجات والأولاد للرجال الذين ولدوا وتربوا على الصورة التى وصفناها، تقوم فى اتباعهم الدوافع الأصلية التى أبلغناهم إياها. وكان الهدف من نظريتنا كما أعتقد هو أن نجعل رجالنا رعاة قطيع.

جلوكون: نعم.

سقراط: إذاً فلنتبع هذا السبيل بحيث نسن قوانين تماثل تلك، للإكثار من النوع وتربية الصغار. دعنا الآن ننظر فى مدى مناسبة تلك القوانين لنا.

جلوكون: ماذا تعنى؟

سقراط: هذا هو ما أعنيه: هل تظن أن زوجات كلاب الرعاة قادرة وصالحة لمشاركة ذكورها حراسة القطيع، والصيد، ومشاركتها فى كل واجباتهم؟ أم أنها يجب أن تلزم أماكنها وحدودها لأنها غير قادرة على القيام بهذه المهام، نتيجة لاشتغالها بولادة صغارها وتربيتها، بحيث يتحتم على الذكور العمل والسهر.

جلوكون: إننا نتوقع منها أن تشارك الذكور كل شىء، فى حين أننا نعاملها معاملة الضعيف، وذكورها معاملة القوى».

وعندما يساوى أفلاطون بين الرجل والمرأة، فذلك لأن الطبيعة ساوت بين الذكر والأنثى فى عالم الحيوان، وليس لأن المرأة تستحق المساواة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والإنسانية والعقلية بالرجل.. وهو تناقض صارخ ينطوى عليه منظور أفلاطون للمرأة التى يمنحها المساواة مع الرجل لمجرد أن تنهض بالواجبات والمسئوليات الملقاة على عاتقها تجاه الدولة، لكنها فى الوقت نفسه لا تملك واجبات ومسئوليات تجاه نفسها. فالمرأة لا تملك أيه حقوق لنفسها فى مقابل

واجباتها. وهذا ظلم بين تركه أفلاطون معلقا على رقبتها فى جمهوريته دون أن يحسمه بإنصافها، مما يدل على مكانتها المتدنية عنده:

«سقراط: هل يمكن استخدام الحيوانات فى عمل واحد ما لم تستعد له استعدادا موحدا بالتدريب والتهذيب؟

جلوكون: كلا.

سقراط: فإذا أردنا استخدام النساء فى عمل الرجال وجب علينا تهذيبهن كالرجال.

جلوكون: وجب.

سقراط: كذلك فنحن منحنا الرجال حق تعلم الموسيقى وممارسة الرياضة.

جلوكون: نعم.

سقراط: وبناء عليه يجب تدريب النساء على الفنين كالرجال، بالإضافة إلى التدريب العسكرى بحيث يعاملن معاملة الرجال.

جلوكون: هذا نتيجة طبيعية لما عبرت عنه.

سقراط: وقد يبدو كثير من تفاصيل القضية التى أمامنا سخيفا للغاية، إذا طبقت بالأسلوب الذى فصلناه.

جلوكون: هكذا يبدو على وجه اليقين.

سقراط: أى هذه الأمور أبعث على السخرية؟ أليس هو اشتراك الإناث مع الذكور فى مدارس الرياضة عاريات الأجساد،

فتيات وطاعنات فى السن، مولعات بالتمارين الرياضية، برغم تغضن أساريرهن، وبشاعة وجوههن؟ مثلهن فى ذلك مثل الطاعنين فى السن من الرجال فى مدارس التدريب الرياضى؟

جلوكون: بالفعل لابد أن يظهرن الآن فى شكل مزرى.

سقراط: حسنا، وبناء عليه إذا طرقت النساء هذا الباب فلا يخشين صور التهكم الشديدة الوطأ من جانب الرجال ذوى المكانة المرموقة، الذين يرفضون بدعة مشاركة النساء لهم فى التدريب الرياضى والعزف الموسيقى. زد على ذلك تقلدهن السلاح وركوبهن الخيل!»

ثم يركز أفلاطون على ولعه بعرى الشباب من الرجال، ويفخر بأن اليونانيين كانوا روادا فى هذا المجال قبل أهالى كريت ومقدونيا وغير اليونانيين الذين يطلقون عليهم لقب «البرابرة». ولا نعرف السر الذى جعل أفلاطون يربط بين العرى والتحضر، وإن كنا نميل إلى الاعتقاد بأن ولعه بالجنس نفسه هو الذى دفعه إلى هذا الربط كى يخفى ميوله الدفينة. بل ويجب على الرجال ألا يرفضوا عرى النساء أو يهزأوا به لأنهن لا يملكن أية سطوة أو حتى جاذبية يخشى منها على عقل الرجال، بالإضافة إلى ضرورة تدريبهن رياضيا وموسيقيا حتى يصبحن أكثر قدرة على خدمة الدولة، وهى التدريبات التى تستدعى عريهن:

«سقراط: والآن نصل إلى أكثر بنود قانوننا حرجا، راجين أولئك الهازئين أن يتراجعوا عن موقفهم، ويأخذوا الأمر بجدية وتعقل، ولنذكرهم أنه إلى زمن غير بعيد، كان تعرى الرجال عيبا ووصمة عند اليونانيين، كما هو الآن عند أكثر البرابرة. ولما بدأ أهالى كريت ومقدونيا تمارينهم الرياضية، هزأ بهم المتزمتون من أبناء عصرهم، واتخذوا منهم موضوعا للسخرية والتسلية لهم. ألا تظن ذلك؟

جلوكون: أظن.

سقراط: ولما أثبتت التجربة العملية أن تجريد الجسد خير من ستره، زال الأثر السحرى الذى ارتبط بهذه العادة فى نظر الناس، وذلك فى مواجهة الحجج القاطعة التى أثبتت فائدته. عندئذ ثبت أن ما يحتقر ليس سوى الرذيلة بعينها، ومن يهزأ بغير الشر والجنون، فهو أحمق، وكذلك من يتنكب طريق الندامة والضياع».

ثم يلجأ أفلاطون إلى منهج سقراط فى التساؤلات التى تدفع المستمعين إلى التدقيق فى تفاصيل القضايا المطروحة للمناقشة، وتحديد مراحلها، وتقنين إجراءاتها، حتى تصبح كل خطوة من خطواتها نتيجة للخطوة السابقة ومقدمة طبيعية للخطوة التالية لها، خاصة فى القضايا الحساسة والشائكة

والمثيرة للجدل الذى يمكن أن يصبح عقيما إذا لم يتسلح بالدقة الموضوعية اللازمة:

«سقراط: أفلا يجب أن نتفق أولا حول إمكان تطبيق هذه القوانين المطروحة للبحث؟ ونفسح مجالا لكل واحد، هازئا كان أو جادا، للبحث فى هذه القضية التى تنطوى على تساؤل لا يمكن تجاهله: هل تملك الأنثى الطبيعة أو القدرة على مشاركة الذكور أعمالهم؟ أو بعضها؟ دون البعض الآخر؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن تصنيف الأعمال الحربية؟ أليست هذه أفضل بداية يمكن أن ننطلق منها؟ وقد تكون أفضل خاتمة للقضية بأسرها؟

جلوكون: أنا متفق معك تماما فى هذا.

سقراط: هل تريد أن نتوغل فى البحث وقد أصبح بعضنا ضد البعض الآخر؟ كى لا نترك الجانب السلبى دون دفاع أمام هجومنا؟

جلوكون: ليس هناك سبب يمنعنا من ذلك.

سقراط: إذاً فلننقل بالنيابة عن الخصوم: «لا لزوم يا سقراط وياجلوكون، لتقديم الآخرين شيئا ضدكم، لأنكم أنتم أنفسكم، فى بدء سعيكم فى تأسيس الدولة، سلمتم بأنه يجب أن يختص كل فرد من الناس بعمل واحد، طبقا لاستعداده الطبيعى».

(جلوكون): «بالفعل سلمنا بذلك وبالتالى لا يمكننا مخالفته».

(سقراط): «هل فى استطاعتك أن تنكر وجود فرق كبير بين طبيعة الذكر وطبيعة الأنثى؟»

(جلوكون): «بالتأكيد هناك فرق».

(سقراط): «أليس من الحسم تخصيص العمل الذى يتفق مع طبيعة كل جنس على حدة؟».

(جلوكون): «لاشك فى ذلك».

(سقراط): «إذاً فأنتم مخطئون لأنكم ناقضتم أنفسكم بتحتيمكم عملا واحدا على الرجال والنساء مع اختلافهن فى الاستعداد فهل عندك من دفاع يا صديقى النابه؟»

جلوكون: ليس من السهل الإجابة فورا، ولكنى سأفوضك، بل أفوضك الآن، فى إقامة الأدلة على صحة مذهبنا، وفى شرحها لنا».

ثم يعبر أفلاطون عن فكرة رائدة لابد أن تسجل له، ويؤكد بها أن الاختلافات بين الرجل والمرأة هى اختلافات بيولوجية وفسيولوجية فى مجال النسل فقط، أما فيما عدا هذا فالفوارق بين الرجال والنساء هى نفسها الفوارق فيما بين الرجال أنفسهم كرجال، والفوارق فيما بين النساء أنفسهن كنساء. ولعل أفلاطون كان يريد بهذا أن يؤكد أن الفوارق التى فرضت على المرأة هى من صنع المجتمع وتقاليده المتوارثة وليست من صنع

الطبيعة. لكنه بذلك يناقض نفسه تماما عندما أكد أكثر من مرة أن المرأة مخلوق أدنى من الرجل. يقول سقراط إنه:

«إذا كان الإنسان الميال إلى الطب يختلف عن ذلك الذى يميل إلى التجارة، كذلك طبائع الرجال والنساء، إذا بدت لنا مختلفة باعتبارها فنا ووظيفة. وإذا كنا قد قلنا إنه يجب أن يقوم أحدهما بهذا العمل أو ذاك، فإننا وجدنا أن الاختلاف بين الجنسين قاصر على مجالات النسل فقط، وبالتالى أدركنا أن اختلافهما لا يتعارض مع مقصدنا، بل على النقيض من ذلك، فإنه يجب على الرجال والنساء أن ينهضوا بنفس الأعمال والمهام».

ويواصل سقراط طرح تساؤلاته على جلوكون كى يستفز تفكيره أو تفكير قراء المحاورة، فى سعى دؤوب لدحض كل الاعتراضات على المساواة بين الرجل والمرأة. وربما كان هذا رأى سقراط بالفعل بحكم ديمقراطيته الأصيلة وحرصه على ترسيخ كيان الإنسان وتدعيمه سواء أكان ذكرا أم أنثى؟ فهو دائم البحث عن الأساسيات والأصول والجذور والبدايات الأولى كى يجنب الإنسان الدخول فى المتاهات الجانبية والطرق المسدودة والدوائر المفرغة التى تجعله يضل طريقه فى الحياة عندما يطغى التشويش والتشتت على بوصلة تفكيره:

«سقراط: أتريد أن نرجو من يثيرون اعتراضا من هذا القبيل أن يصحبوننا لنرى، هل نقدر أن نريهم أنه ليس فى أعمال إدارة الدولة عمل يختص بالنساء؟

جلوكون: طبعا أريد.

سقراط: فلنقل له ما يأتى: «أجب يا هذا، أليس ما تعنيه، عندما قلت إن رجلا من الرجال مفطور على موهبة خاصة لدرس خاص وأن رجلا آخر خال منها، وأن الأول يتعلم بسهولة والآخر بصعوبة؟ وأن الأول يفهم ما قرأه لنفسه بقليل من الإرشاد، أما الآخر فلا يستقر العلم فى عقله برغم حصوله على إرشاد وفير وعناية عظيمة، وأن عقل الأول استفاد من المساعدة اللازمة، أما الآخر فقد خذلته قوى الجسد؟ أليس هذا ما تعنيه بالفوارق الوحيدة التى تحد امتلاك المواهب الطبيعية اللازمة لكل عمل؟»

جلوكون: كل الناس يرددون هذا القول.

سقراط: أتعرف مجالا فى الصناعة تتساوى فيه النساء مع الرجال؟ وهل يلزم أن نتقدم خطوة أخرى ونذكر فن النسج، وصنع الكعك، وحفظ المأكولات التى فقن فيها الرجال، لدرجة أن تقصيرهن فيها مثير للدهشة والاستغراب؟

جلوكون: ما قلته هو الصواب بعينه. فمن الشائع أن يفوق أحد الجنسين الجنس الآخر، فى بعض المجالات، وأن كثيرات من النساء يفقن كثيرين من الرجال فى أمور كثيرة، لكن الحكم العام هو ما شهدت به أنت.

سقراط: يا صديقى، ليس هناك فى الأعمال المتعلقة بإدارة الدولة، ما يختص بالمرأة كامرأة، أو بالرجل كرجل. إنها مواهب موزعة على أفراد الجنسين سواء بسواء، وبالتالى تعتبر طبيعة المرأة مؤهلة لكل عمل ، مثلها ذلك مثل الرجل، مع أنها على أية حال أضعف منه بوجه عام فى بعض الأعمال.

جلوكون: هذا قول حتمى.

سقراط: هل نخص الرجل بكل الأعمال ولا نترك للمرأة عملا ؟

جلوكون: وكيف نستطيع ذلك؟

سقراط: على النقيض من ذلك تماما، فإننا نرى إحداهن ميالة إلى الطب، والأخرى خالية من ذلك الميل، وإحداهن ذات ميول موسيقية فى حين أن أختها أبعد ما تكون عن هذه الميول.

جلوكون: ليس هناك شك فى ذلك.

سقراط: ألا نقول أيضا إن إحداهن مجهزة باستعداد يؤهلها للرياضة والحرب، وغيرها لا تميل إلى الحرب، ولا ذوق لها فى الألعاب الرياضية؟

جلوكون: أظن أننا نعترف بهذا.

سقراط: هل من الممكن أن تمتلك إحداهن حب المعرفة فى حين تتربع كراهية المعرفة على قلب أختها، وأن

تتــدفق إحداهـن بالـحماسة والتوهـج فى حين تبدو أختها خامدة وراكدة؟

جلوكون: وهـذا أيضـا حق.

سقراط: وبناء عليه يصبح بعـضـهن صـالحـا لكرسى السـلطة، دون البـعض الآخر. أليـست هـذه هـى الصفـات التى اختـرناهـا دليلا علـى جدارة الرجال بذلك المنصب؟

جلوكون: نعم .. إنها هـى».

وهـكذا تمـتـد سلسـلة تسـاؤلات سـقـراط المتـتـابعـة على أسـاس مـتين من الأسـبـاب التى تـؤدى بالـحـتـمـيـة إلى نتـائـج من جنسـهـا، بـحيث يـصـل فى النـهـاية إلى مـقولة هـى بمثابة القـانون الذى لا يمكـن دحـضــه. فـقـد أثبت بما لا يدع مــجـالا لـلشك أن الفــوارق بين الرجـال والنسـاء هى نفـسـهـا الفـوارق التـى يمكن إدراكـهـا بين الـرجـال أنفسـهم أو بين الـنسـاء أنفسـهن. وبـالتـالـى فالسبيل إلى كرسـى الـحكم والسلـطة ممهد أمام المـرأة طالمـا أنها تملك المؤهـلات والإمكانـات التـى تسـاعـدها على ذلك. وإذا كـانت الدولة فـى أشـد الـحـاجـة إلـى الرجل الفـاضـل والحكيم والـقـوى، فــهى عـلى نفس الدرجـة مـن الاحـتـيــاج إلى المـرأة الفـاضـلة والـحكيمة والقوية.

ومن الـواضـح أن هـذه الآراء تتـناغـم مع المـنظـور الفلســفى والإنسـانى والديمـقـراطى الذى اشـتـهـر به سـقـراط الذى رأى فى

الحفاظ على كيان الإنسان وكرامته، بصرف النظر عن جنسه أو نوعه أو عمره أو طبقته الاجتماعية، هدفا استراتيجيا لا يحيد عنه. أما عندما تنتقل المحاورة بعد ذلك إلى اعترافه بمعقولية شيوعية الزوجات والأولاد بين الرجال، عندئذ ندرك أن أفلاطون هو الذى يتكلم من وراء قناع سقراط الذى لا يمكن أن يقبل بهذا الإهدار غير الإنسانى للكيان الأسرى الذى يعد النواة الصلبة أو الوحدة الأولى لأى بناء اجتماعى وحضارى. وقد يظن البعض أن سقراط يمكن أن يتبنى هذه الفكرة نتيجة للمعاملة السيئة والجارحة التى تلقاها على يدى زوجته وسجلها التاريخ بوضوح لا يقبل الإنكار، لكنه ظن مردود عليه لأن سقراط الفيلسوف الذى ارتبط اسمه بالموضوعية المثالية التى لا تخضع لأية ميول أو انفعالات أو ضغوط شخصية، لم يكن على استعداد ليصوغ مبدأ أو نظرية تحت ضغط المشكلات أو المناوشات التى أغرمت زوجته بإثارتها معه. لذلك فإن المقتطفات التالية من الحوار تعبير عن توجهات أفلاطون وإن كانت على لسان سقراط:

«سقراط: من الطبيعى أن تكون النساء بلا استثناء زوجات* مشاعا للحكام، فلا يخص أحدهم نفسه بإحداهن. وكذلك أولادهم الذين يصبحون مشاعا، فلا يعرف والد ولده ولا ولد والده.

جلوكون: هذه الشريعة مثار للشك فى تطبيقها وفى فائدتها.

سقراط: أما من جهة فائدتها فلا أظن أن أحدا يمكنه أن ينكر أن شيوعية النساء ومن يلدن، جمة الفوائد، طالما أن تطبيقها ممكن، لكننى أتوقع أعظم مقاومة فى تطبيقها بالفعل».

واعتراف أفلاطون بتوقعه لهذه المقاومة العنيفة لشيوعية النساء والأولاد، دليل على إدراكه لتناقضها مع الكيان الأسرى والكرامة الإنسانية. فهو يطالب بانتقاء أكفأ النساء لأكفأ الرجال ثم الجمع بين الفريقين، متوخيا، بقدر الإمكان أن يكونوا متشابهى الطباع. ولما كان مسكنهم وطعامهم مشاعا، ولا أحد منهم يختص بملك أو عقار خاص، فمن الطبيعى أن يعيش الجنسان معا، ويشتركون جميعا فى التدريبات والمسئوليات وغيرها من مهام الحياة، فتكون نتيجة ائتلافهم ومشاركتهم الانقياد بالفطرة إلى المودة والصداقة. لكن جلوكون يعلق على شرح سقراط هذا بأنه ليس من الضرورى أن ينفذ هذا المخطط بالحتميات الهندسية ولكن بطاقات الحب التى تتفوق فى فعاليتها على التطبيقات الهندسية، وتلقى ترحيبا أكبر عند الجنسين:

«سقراط: أوافقك تماما على أن الجماع الجنسى ياجلوكون، أو بالأحرى الفوضى، بشتى أنواعها، أمر غير مقدس فى مدينة السعداء، ويجب ألا يبيحه الحكام.

جلوكون: هذا هو الصواب بعينه.

سـقـراط: من الواضح أن ثانى واجـبـاتنا يـحـتـم تقـديس الروابط
الزوجـيـة، بقـدر الإمكان. وهذا التـقـديس لابد أن يلازم
الزواج الذى يعود بأعظم الفوائد على كل الناس.

جلوكون: لا مفر من ذلك».

لكن القـداسـة التى يحـتـم سـقـراط ارتـبـاطهـا وتوافـرها فى الزواج، سرعان مـا يقلبها أفلاطون إلى أسلوب للجماع بين ذكور الحيـوانات وإناثها بهدف توليد وإنتاج أفضل السلالات. وهذا هو التناقض الصارخ الذى تنطوى عليه مثاليات أفلاطون الذى يحاول الجمع بين الشىء ونقيضه فى الوقت نفسه، فى حين اشتهرت فلسفة سقراط بالمنطق المتماسك والتسلسل الحتمى بين الأسباب والنتائج بحيث يصعب أن نمسك عليه أى تناقض أو ثغرة أو تهافت. أى أنه كان ضحية أفلاطون عندما أنطقه بهذه الشطحات المثالية المتهافتة التى لا يمكن أن تصمد لأية نظرة أو رؤية نقدية ثاقبة.

«سـقـراط: إذاً كيف يمكن بلوغ هذه الغاية ياجلوكون؟ إننى أرى
فى بيتك كلاب صيد، كما إننى أرى كثيرا من أنواع
الطير؟ ولى وطيد الأمل أن تفيدنى فى هذا الشأن ومدى
اهتمامك بكيفية مزاوجة هذه الحيوانات واستيلادها؟

جلوكون: على أى أساس؟

سقراط: على أساس أن كلها أصيل لكن يوجد فيها ما هو أفضل
من غيره، أو ما سيصير أفضل.

جلوكون: يوجد بالفعل.

سقراط: هل تقوم باستيلادها كلها على السواء، أم تعنى أكثر باستيلاد الأفضل بقدر الإمكان؟

جلوكون: أستولد الأفضل بالطبع.

سقراط: وفى أى عمر تستولدها؟ أفى الحداثة، أم فى شرخ الصبا، أم فى الشيخوخة؟

جلوكون: فى شرخ الصبا بالطبع.

سقراط: وإذا لم تسلك فى استيلاد حيواناتك هذا المسلك، أتظن أن جنس الكلاب والطيور ينحط كثيرا؟

جلوكون: أظن هذا.

سقراط: أتختلف الخيول وسائر أنواع الحيوان فى هذا الحكم؟

جلوكون: لا أظن، فمثل هذا الظن عبث فى عبث.

سقراط: وعليك أن تدرك ياصديقى العزيز أى نوع من الحكام الممتازين يمكن أن نفوز بهم إذا طبقنا ذلك على النوع الإنسانى؟

جلوكون: لا شك فى ذلك».

وهذه الفلسفة الغاشمة التى يتمنى أفلاطون تطبيقها لا تعنى سوى إهدار حق ما يسميهم بأدنياء الرجال والنساء فى الزواج بهذه البساطة. فالدولة مكلفة فقط بتربية وتعليم وتهذيب

أبناء الأفاضل والفضليات كما يسميهم أفلاطون، أما أبناء الأدنياء الناتجين عن زواج لا تعترف به الدولة فلابد أن تهملهم الدولة حتى لا تضيع وقتها وجهدها فيما لا يجدى. وتصل السذاجة بأفلاطون إلى الحد الذى يتصور فيه أنه لابد أن تحتفظ الدولة بسر هذا النهج الذى ستتبعه، ولا يكشف إلا للقضاة المسئولين عن تطبيقه، حتى يصبح جمهور الحكماء والأفاضل فى مأمن من النزاعات والمشكلات التى يمكن أن يتسبب فيها الأدنياء والضعفاء. أما عدد الزيجات فمتروك تحديده للحكام الذين يتحتم عليهم الحفاظ على التوازن فى عدد السكان، دون زيادة أو نقصان، واضعين فى اعتبارهم النتائج المترتبة على الحروب والأمراض وغير ذلك، حتى تظل المدينة محتفظة بحجمها المنشود بقدر الإمكان.

ويتذرع أفلاطون بحجة قدرية مضحكة من اختراعه؛ يبرر بها حدوث الزواج بين الأدنياء إذا لم يستطع النظام أن يمنعه. فهو يطالب باستنباط نظام قويم للاقتراع يجعل أدنياء الرجال ينسبون زواجهم إلى القدر لا إلى الحكام. فطالما أن الإنسان لا يستطيع أن يحتاط تماما للقدر، فلابد من اعتبار زيجات الأدنياء من فعل القدر وليس من تخطيط الحكام الذين يرسمون كل شىء بقدر. بل يمكن للحكام أن يحاصروا هذه الشطحات القدرية بقدر الإمكان بأن يخصوا الشبان المبرزين فى الحرب وغيرها من الأنشطة الأخرى، بحرية الاختلاط والاجتماع بمثيلاتهم من

الفتيات، ورصد الامتيازات والمكافآت الأخرى المجزية، وذلك كستار يخفى تكاثر مواليد هؤلاء الممتازين والأقوياء والأفاضل. أما شرخ الصبا عند أفلاطون فيمتد من العشرين إلى الأربعين بالنسبة للمرأة، ومن الثلاثين إلى الخامسة والخمسين بالنسبة للرجل، سواء بالنسبة للجسد أو العقل. ويواصل أفلاطون إنطاق سقراط بشرائع هذه الدولة الديكتاتورية التى لا تمت بصلة إلى فكر سقراط الإنسانى والديمقراطى فيجعله يقول:

«سقراط: فإذا نسل الرجل قبل هذه السن، أو بعدها، فلابد أن يعتبر الحكام والقضاة عمله هذا تعديا على الدين والعدالة. فولادة مولود للدولة أمر لا يجوز إخفاؤه، فهذه الولادة لابد أن تتبعها الذبائح والصلوات التى يرفعها الكهنة والكاهنات، وهى نفسها التى يشترك فيها جميع الأفراد عند عقد كل قران، كى يكون طرفاه بريئين نافعين فيكون النسل أبر وأنفع. أما الزرع غير المقدس فقد ولدت بذرته فى ظلمات الخفاء بسبب الاسترسال فى المعاصى.

جلوكون: أنت مصيب فيما قلت.

سقراط: ويجب أن يكون القانون واحدا لمن أنجب من الرجال، فى حدود السن المقررة. فإذا لم يُحط القاضى علما بذلك، فلابد أن يعتبر مجرما فى حق الدولة لأنه أوجد فيها نسلا غير شرعى ولا مقدس، وبدون كفيل.

جلوكون: ما قلته هو غاية الصواب.

سقراط: ومتى بلغ الجنسان السن القانونية، أبحنا للرجال الاجتماع بمن يحبون من النساء إلا بناتهم وأمهاتهم وجداتهم وحفيداتهم. كذلك يباح للنساء كل رجل إلا أباها وابنها وسلفها وخلفها. وذلك بعد أن نوصيها بتنفيذ الأفضل وهو: إذا حبلت إحداهن عرضا فى غير الحالة المقررة، فلابد من إجهاضها. وإذا لم تتمكن من ذلك، فيلزم التخلص من الطفل على أساس أن ثمرة جماع كهذا لا تجوز رعايتها أو تربيتها».

هذه هى قيمة الإنسان عند أفلاطون، إذ يمكن التخلص منه كحشرة ضارة بالنظام المثالى الموضوع الذى يتحتم على الجميع السير بكل دقة على نهجه، ومن يخترقه أو يخرج عليه، فلابد من محو نتائج فعلته تماما حتى لو كانت إعدام طفل برىء. فالمهم هو تطبيق النظام الغريب والشاذ الذى يتعبد أفلاطون فى محرابه دون مبرر إنسانى واحد. وهى ما يؤمن عليه جلوكون بقوله:

«جلوكون: كل هذا معقول. لكن كيف يتعرف الأبناء على آبائهم وأقاربهم الذين ذكرتهم؟

سقراط: لا يعرفونهم على الإطلاق، لكنهم يدعون جميع الأطفال الذين يولدون بين الشهر السابع والعاشر من قرانهم،

أبناءهـم وبناتهم. وهؤلاء أيضـا يدعـون الذكـور آباءهم والإناث أمـهـاتهـم، وأولاد المواليـد أحـفـاد، وأبـاء الوالدين أجداد وجـدات. أمـا المواليـد الذيـن ولدوا فى دور التـوليـد المضـروب لوالديهم يـدعـون بعـضـهـم بعـضـا أخـوة وأخـوات. ويحظر علـى الأخـوة والأخـوات أن يلمـسـوا بعضـهم بعضـا، لكن الشريعة تبيحه إذا أصـابتهم القرعة ووافقت عرافة دلفى على ذلك.

جلوكون: هذا حقا الصواب بعينه.

سـقـراط: هـذه هـى شـيـوعـيـة النسـاء والأولاد فى حكـام دولتك يا جلوكـون. وعـلـينا أن نشـرع كى نثـبـت أن هـذه الـفكرة مـتـمـشـيـة مع سـائر أنظمـة حكومـتنا، وأنهـا أفـضـل مـا يمكن تصوره».

ثم يعـرج أفـلاطون مـرة أخـرى على الـتـغـزل والـتـشـبـيب بالمذكر بصـفته نغمـته المفضلة. ولم يحدث أن تغـزل أفلاطون فى النسـاء الإغـريقـيـات برغم جـمـال الوجـه وسـحـر الجـسـد اللذين اشتهـرن بهما، واللذين تدل عليهـمـا التماثيل الرخـامـية والمرمرية التـى صـمـدت لـلزمن، ومـا المـقـاييس التـى عُرفت بهـا تماثـيل أفـروديت الهة الحب والجـمـال سـوى مقـاييس اسـتـلهـمـها المثـالون والنحـاتون من بـنات الإغـريـق. لكن أفـلاطون يمر علـى كل هـذا الجـمـال والسـحـر مـر الكرام أو الـعـمـيـان أو المتـجـاهـلين، ولا يرى

سوى جمال الذكور وسحر الفتيان، ويقول على لسان سقراط أوصافا وصورا لا تنم إلا عن رؤية شاذ جنسيا، تجرفه النشوة كلما رأى فتى لا يستطيع مقاومة إغرائه:

«سقراط: هل يلزم أن أذكرك، أو تقوم أنت بتذكير نفسك، ما قلناه من خلال البحث، وهو: إذا أحب أحد شيئا، فيجب ألا يحصر محبته فى جزء مما أحب دون غيره، بل عليه أن يحبه كله بجميع أجزائه؟

جلوكون: أرجو أن تذكرنى، فأنا لم أفهم ذلك تماما.

سقراط: إن اعترافا كهذا يجدر بغيرك يا جلوكون. أما رجل ذو فطرة يدرك الحب مثلك، لا يجوز أن ينسى أن من فتن بالحب، شغف بمن فتنوه وهم فى شرخ الصبا، لأنه يراهم جديرين بشغفه وتزلفه وتلهفه عليهم. أليس هذا هو الأسلوب المتبع فى الشغف بالفتيان، فتمدح فى الفتى قصر الأنف لأنه جذاب، والأنف المتألق بالحمرة القانية فى نظرك، ملكى المظهر، وثالث الأنوف، وهو المتوسط بين هذين، يجعل الوجه أكثر اتساقا وجمالا. وترى سمر الألوان متدفقين بالرجولة، وشقر الألوان يبدون كأبناء الآلهة. أما من صاغ عبارة «الأصفر الزيتونى» فهو العاشق المتيم الذى انتحل لنفسه عذرا عندما رأى صفرة وجنة الحبيب؟ وموجز القول، إنك

تختلق شتى الأعذار، وتستخدم كثيرا من الأمثلة، لكنك لا يمكن أن تمر مر الكرام على حب من كان فى نضارة الحياة».

هذا هو الحب الأفلاطونى على حقيقته بعيدا عن الأوهام أو التهويمات التى ارتبطت به عبر العصور فأضفت عليه من المعانى والدلالات والمضامين ما لا يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد. إن من يدرس أفلاطون الحقيقى يجد فيه شاعرا وأديبا عظيما، فى شعره لمحات من الحكمة والنظرة الثاقبة التى تضىء كثيرا من دهاليز النفس البشرية المعتمة، لكنه لم يكن دائما فيلسوف متسق النظرة، أو مفكرا إنسانى التوجه، أو مرشدا يهدى إلى الطريق السوى، وإنما كان فى كثير من الحالات منحرفا وضارا للغاية، وربما لو أخذ المشرعون بما جاء فى نظريته عن الحب - هذا إذا اعتبرناها نظرية بمعنى الكلمة إذ أنها تحتوى على كثير من التناقضات والمفارقات - لنال الكيان الإنسانى ضربات قد تكون قاضية ومهلكة بالفعل. ولذلك فإنه من الخير أن الذين أسرفوا فى امتداحه، وصنعوا منه صنما ليتعبدوا فى محرابه، اقتصر مديحهم وعبادتهم على مجرد كلمات حماسية صدرت عن شفاههم فحسب، ولم يحدث أن سعوا لاتباعه بالفعل أو إخراج أفكاره إلى حيز التطبيق العملى، فليست هناك نفس بشرية تحتمل أو تتمنى مثل هذا الهوان والإذلال.

لكن هذا النقد لا يعنى نفى أفلاطون نفسه من جمهوريته المثالية كما نفى هو نفسه الشعراء والأدباء والفنانين منها، بل على النقيض من ذلك تماما، إذ يجب أن يواصل وجوده على خريطة الفكر العالمى بشرط أن يراه الناس فى ضوء حقيقى غير زائف. وكانت فكرة الحب الأفلاطونى خير محك لتعرية هذا الزيف. فليبق أفلاطون، ولنكشف عن حقيقة أفكاره وتوجهاته الأخرى للناس، حتى يلمسوا جوانبه الإيجابية المثمرة والعظيمة، وكذلك جوانبه السلبية العقيمة والمنحرفة.

** ** **

الفصل الثالث

المفهوم الاجتماعى والتربوى والسياسى للحب

يبدو المفهوم الاجتماعى والتربوى والسياسى للحب عند أفلاطون أكثر إنسانية وعقلانية واتساقاً ومنطقية من مفهومه الجنسى والبيولوجى والفسيولوجى للحب، الذى تناولناه بالتحليل والنقد والتفنيد فى الفصل السابق. ذلك أنه يقلل من تعسفه وديكتاتوريته التى فرضها على العلاقات الخاصة والحميمة بين الجنسين، بالتركيز على أهمية المجتمع الذى ينهض على الحب بين الحاكم والمحكوم أو بين مختلف الأفراد أو الطبقات. فالقهر الذى فرضه على الحب كعلاقة شخصية، جعل منه نظاماً متسقاً شبه متناغم بين المواطنين بحيث يبدو الحب بمثابة صمام أمن، يتمنى أن يلجأ إليه اليونانيون تجنباً لحروب الحقد والكراهية التى مزقت مدنهم شر ممزق. لكن هذا النظام بدوره تحول فى النهاية إلى نوع من القهر عندما فقد روح الحرية.

والمفهوم الاجتماعي والتربوي والسياسي للحب عند أفلاطون له جوانب عديدة تكاد تغطي أنواع الحب التي تسمو بالإنسان إلى آفاق أرقى إلى حد ما من تلك التي وردت في مفهومه الجنسي والبيولوجي والفسيولوجي له. فالحب هنا يتفرع إلى حب للحكمة، وهو الحب الذي اتخذت الفلسفة منه اسماً لها، وحب المعرفة، وحب الفضيلة، وحب العدالة، وحب الحاكم، وحب الرعية، وحب الشجاعة، وحب الوطن، وحب الشرف، وحب الحق، وحب الجمال، وحب الخير، والصداقة، والتناغم، والوئام، والسلام، والقوة بأنواعها... إلخ. وكان أفلاطون قد عبر عن هذه المجالات من خلال المأدبة التي أقيمت في منزل الشاعر الأثيني أجاثون عندما نال الجائزة الأولى على إحدى مسرحياته التي لاقت نجاحاً كبيراً. ودعا الشاعر أصدقاء لمشاركته احتفاله بهذا الفوز حيث تناقشوا في موضوع أثير إليهم وهو « الحب »، فجعل كل منهم يبدي رأيه في هذا الموضوع الذي لا يفقد جدته أبداً. فقال فيدروس:

«الحب أقدم الآلهة جميعاً، ومن أشدها بأساً. فهو القوة التي تحيل الشاب العادي بطلاً. فالعاشق يخجل من أنه يبدو جباناً أمام من يحب. ولو تهيأ لي جيش من العشاق لفتحت به العالم كله» ثم قال بوسنياس :

«هذا حق. لكن علينا أن نفرق بين حب الأرض وحب السماء، بين التجاذب بين الجسدين من ناحية، وتآلف الروحين

من ناحية أخرى، فحب الجسد همجى خشن، يولى الأدبار إذا ذوت زهرة الشباب، أما حب الروح فنبيل خالد لا تذبل أزهاره أبداً».

ثم يدلى الشاعر الكوميدى والمسرحى الساخر أريستوفانيس بدلوه فى موضوع الحب، فيبدى رأياً فى منتهى الجدة والطرافة حين يقول :

« إن الجنسين فى غابر الأزمان كان يعيشان فى جسد واحد. جسد مستدير كالكرة، له أيد أربع وأرجل أربع ووجهان. وكان يتحرك بسرعة مذهلة، يستخدم فى سيره أطرافه الثمانية، كأنها عوارض عجلة تدور على نفسها باستمرار. وتوافرت لهذا الجنس المذكر المؤنث قوة رهيبة، وبلغت مطامحه آفاقاً لا تحد، فقرر الصعود إلى السماء وغزو الآلهة فى عقر دارها. عندئذ لم يحتمل زيوس هذا التجاوز وصاح قائلاً: «لنشطر كلاً من هذه المخلوقات شطرين، وبذلك تنخفض قوتها إلى النصف، ويتضاعف عدد من يموت منها». وهكذا شطر كل واحد من تلك المخلوقات ذكراً وأنثى. ومنذ ذلك اليوم أصبح الجسم الواحد جسمين يتحرقان شوقاً إلى الإندماج مرة ثانية فى جسم واحد. هذا الحنين القاتل إلى اندماج الجنسين هو ما ندعوه «الحب».

وتوالت التفسيرات والتعريفات الكثيرة للحب، إلا أن طُلب إلى ضيف الشرف سقراط أن يبدى رأيه فى الموضوع. فشرع فى المناقشة بأسلوبه الشهير الذى يمزج السخرية بالتواضع وقال:

«لقد أذهلتنى كل هذه الفصاحة، فانعقد لسانى وتحجر كيانى، فأين أنا بغفلتى وجهلى من تلك الحكمة الرفيعة السامقة؟ ومع ذلك اسمحوا لى أن أفند هذه الحكمة بغفلتى».

وشرع سقراط فى تفنيد حكمتهم «بغفلته»، بل وتمزيق حجتهم بسيل من الأسئلة التى لا يمكن الإجابة عليها. ذلك أن سقراط هو منشىء أسلوب الحوار الذى يتبادل الأفكار ويولدها، ويرفض أى تلقين لها، بحيث تتحول إلى التساؤلات والتأملات والتحليلات إلى معاول لهدم الأبنية الفكرية الخالية من الاتساق والمنطق، والزاخرة بالأوهام التى يظنها الناس حقائق، بحيث إذا فرغ من عملية الهدم وتنظيف الأرض من الشوائب، أتبعها بعملية إنشائية تقيم البناء الفكرى على أسس متينة واقعية فعندما أثبت لهم أن أفكارهم وآراءهم هى من باب الأوهام والأساطير والخيالات الأدبية التى قد تمتع الوجدان والمشاعر، لكنها لا تصمد أمام المنطق العقلانى الذى يبحث الموضوع من كل جوانبه الواقعية والمحتملة، وتداعياتها التى تمتد كسلسلة من الأسباب والنتائج. يقول سقراط :

«إن الحب هو تعطش الروح البشرية إلى الجمال المقدس. فالعاشق لا يتلهف على أن يجد الجمال فحسب، بل يعمل على تخليده، واستنبات بذرة الخلود فى الجسم البشرى الفانى. وهنا يكمن السر فى ميل كل من الجنسين إلى الجنس الآخر، ليكرر وجوده ويواصله، وبالتالى يمد زمانه إلى الأبد. وهو ما يفسر لنا

حب الآباء لأبنائهم، لأن روح الأب المحب لا تنجب أطفالاً فحسب، بل تنجب أيضاً الباحثين والشركاء والأعوان فى العمل، والخلفاء فى البحث الخالد عن الجمال. أما الجمال الذى نبغى كلنا تخليده عن طريق الحب، فهو الحكمة والفضيلة والشرف والشجاعة والعدل والإيمان. وموجز القول إن «الجمال هو الحق» و «الحق هو أقصر طريق تؤدى إلى الله».

وكان ممن شهدوا هذه «المأدبة» الشهيرة، شاب من تلاميذ سقراط، قدر له أن يخلد عبقرية أستاذه وموهبته العقلية الفذة، وكان هذا الشاب هو أفلاطون الذى أصبحت «المأدبة» من أشهر محاوراته. كان باحثاً دؤوباً عن الحكمة والمعرفة. ولم يكن قد تعدى العشرين عندما بهر بسقراط ووقع تحت تأثيره، عندما كان يناهز الثانية والستين من عمره، وكان ذلك فى العام السابع بعد الأربعمائة قبل الميلاد.

منذ البداية أحب أفلاطون سقراط حباً بلغ حد التقديس، فانتظم فى صف كوكبة من الشبان اللامعين، الذين يتابعون ذلك الفيلسوف الجوال فى شوارع أثينا، ينثر الحكمة ذات اليمين واليسار، وهم يصغون إليه فى انبهار وسرور وهو يدحض حجج أكبر حكماء أثينا ويفند أدلتهم بسخرية لا تقاوم ويجبرهم على الاعتراف بجهلهم وادعائهم. ولم يكن سقراط مصاباً بالغرور، ولم يفكر فى بلوغ حكمة تعلو وتسمو على حكمة البشر، بل دفعه تواضعه إلى أن يقصر جهده على مهمة إنسانية بحتة، وهى

مهمة توجيه الأسئلة وإثارة التساؤلات. فهو يقول : « إننى لا أعرف غير شىء واحد، هو أننى لا أعرف شيئاً » ثم يسارع ليثبت للناس أن شأنهم كشأنه، وأنهم لا يعرفون شيئاً، إذ كان كل همه أن يتعلم، ويمكّن غيره من أن يتعلم. وفى ذلك يقول دون خجل من تواضع أصله فى مجتمع رضخ تماماً لجبروت الأرستقراطية : « كانت أمى قابلة (داية)، وأنا أحاول أن أترسم خطاها، فأنا أقوم بتوليد العقول، أساعد غيرى على أن يخرج آراءه إلى الحياة ».

كان سقراط يجوب شوارع أثينا ليوجه أسئلته الأولية حيثما وجد أى تجمع من الناس أو الشباب: ما معنى هذا؟ ما التقوى؟ ما الإيمان؟ ما الديمقراطية؟ ما الفضيلة؟ ما الشجاعة؟ ما الأمانة؟ ما العدل؟ ما الحق؟ ما الحب؟ ما المعرفة؟ ما الحكمة؟ ما العلم؟ ما العمل؟ وما عملك؟ وماذا أضفت إلى مهمتك من علم أو ابتكار أو مهارة؟ هل أنت من رجال السياسة والحكم؟ فإذا كنت كذلك، فماذا تعرف عن السياسة والحكم؟ هل أنت محام؟ ماالدراسة التى قمت بها للدوافع البشرية التى تصدر عنها أعمال الإنسان؟ هل أنت مدرس؟ ماذا فعلت لتقهر جهلك قبل أن تجرؤ على مكافحة جهل غيرك؟ هل أنت عاشق؟ ماذا تشعر على وجه التحديد تجاه حبيبك؟ أم أنك عاشق لنفسك وتظن أنك عاشق لغيرك؟ تفضل بالإجابة...

كان حب سقراط للمعرفة والحكمة رائداً له فى كل أسئلته وتساؤلاته التى كان يختبر بها العلماء والمفكرين والمثقفين،

ويكشف جهلهم لا عن حقد أو تحقير، فهو يتوق إلى كشف جهله بقدر ما يتوق إلى كشف جهل غيره، فقد كان هدفه الوحيد أن يصل إلى الحق عن طريق تعرية الباطل ودحره والتخلص منه. فهو يصف نفسه بأنه عاشق للحق بحيث يسير فى أعقابه ويتلمس آثاره تلمس كلب الصيد للفريسة. كذلك دفعه عشقه للحكمة إلى التساؤل : ما هى الفلسفة ؟ ثم يلقى بإجابة مقتضبة من شأنها أن تثير المزيد من التساؤلات : الفلسفة هى العملية العقلية التى تظهرنا على حقيقة أنفسنا وشعارها «اعرف نفسك».

وبرغم تبشير سقراط بكل أنواع الحب فى جميع المجالات فإن مأساته نتجت عن أن معظم الناس إذا تعرت أنفسهم، أصابتهم خيبة أمل عندما يرون مدى بشاعة جهلهم وادعائهم وزيفهم. وسرعان ما يأخذون موقف الخصومة أو العداء ممن كان السبب فى هذه التعرية، كآلية دفاعية تحافظ على ما تبقى من مكانتهم فى المجتمع. فما كاد سقراط يزيل غشاوة الخداع والزيف عن أعين الأثينيين، ويضعهم أمام مرآة الحق، حتى أفزعتهم بشاعة المنظر، كانت المرآة تعكس صور النفاق، والحقد، والكراهية، والإدعاء، والكذب، والزيف، والانتهازية، والانانية، والجشع، والشراهة، وغير ذلك من الصور التى تفضح أحط الغرائز والسلوكيات الكامنة داخل دهاليز النفوس وكهوفها المعتمة.

ظل أهالى أثينا مستسلمين لهجمات سقراط الذى مارس حقه فى ابداء الرأى وإثارة النقاش الحر فى ظل الديمقراطية التى

اشتهرت بها أثينا، ولم يردوا عليه إلا بالتجاهل أو الزراية أو الاستخفاف أو السباب من حين إلى آخر إلى أن أصيبت الديمقراطية الأثينية بضربة قاصمة عندما منيت أثينا بهزيمة مرة فى حرب البلوبونيز عام ٤٠٤ ق. م. وهى الحرب التى قضت فيها ديكتاتورية إسبرطة وبطشها على ديمقراطية أثينا وحماسها للكرامة والحرية الإنسانية، وذلك بقلب حكومة أثينا الحرة، وإقامة حكومة عميلة تحت رئاسة الطاغية أقريطاس. ونظراً لأن الطغيان نار تأكل نفسها بنفسها إذا لم تجد ما تأكله، فقد طرد أقريطاس من الحكم شر طردة نتيجة لثورة مضادة اندلعت وأطلقت أحط الغرائز البشرية من عقالها. فلم تعد أثينا بالمكان الأمين لفيلسوف أو مفكر أو معلم صادق مع نفسه ومع الآخرين، خاصة إذا كان فيلسوفاً من طراز سقراط، لا يتردد فى المجاهرة برأيه.

وسرعان ما وجد سقراط نفسه متهماً بجريمتين خطيرتين : أولاً : أنه لا يعبد آلهة المدينة، بل يعبد آلهة من عنده، وثانياً : أنه يضلل الشباب ويفسد أخلاقهم. وعقوبة هاتين الجريمتين هى الإعدام.

ومن سخريات القدر أن الذى وجه الاتهام إلى سقراط كان مجرد تاجر جلود يدعى أنيتس. وكان يحقد على سقراط لأنه نصح ابنه بالانصراف عن دبغ الجلود، وهى صناعة أبيه، ليتخصص فى الفلسفة التى وجد عنده قدرة على التبحر فيها.

وهكذا كان فى إمكان دباغ أن يتهم سقراط بتهم عقوبتها الإعدام الذى نفذ فيه بالفعل. وكان فى وسع سقراط أن ينجو من عقوبة الإعدام لأن القانون الأثينى يبيح لمن حكم عليه بالإعدام أن يستبدل به النفى. كما أن بعض الأثرياء من أصدقائه، ومنهم أفلاطون، قد تمكنوا من رشوة السجان، بحيث كان فى إمكان سقراط أن يفر إذا شاء. لكنه آثر أن يجعل من حياته ومماته قدوة عبر الأجيال. كان دائم البحث عن معنى الحياة ثم جاء الوقت الذى يبحث فيه عن معنى الموت، فلم يتراجع قيد أنملة إلى الوراء. فقد صاح قائلاً لقضاته بعد صدور الحكم :

« فلنواجه الموت بشجاعة كما واجهنا الحياة. ليست المشكلة يا قضاتى فى أن ننجو من الموت، بل فى النجاة من الجريمة، لأن الجريمة تحاول الالتصاق بالإنسان فى كل لحظة يحياها، خاصة إذا لمست فيه ضعفاً لمقاومتها ، أما الموت فلايلتصق بالإنسان إلا فى لحظة واحدة ومحددة. لقد لحق الموت بى، فى حين لحق الإثم بمن وجهوا إلىّ التهمة. وسألقى أنا عقابى، كما سيلقون هم عقابهم » .

كذلك أثبت سقراط أن الإنسان العاقل، الناضج، الواعى، المدرك لحقائق الحياة، لا يمنعه حبه للحياة من أن يحب الموت أيضاً. فلولا الموت لما كانت هناك الحياة التى نعرفها ونعيشها، ولولا الحياة لما كان هناك الموت الذى يصفه سقراط بأنه :

«نسيان خالد حلو لا يفسده اضطهاد أو ظلم أو خيبة أو ألم أي حزن، أو إنه باب يلجه الإنسان فيمضى من الأرض إلى السماء. إنه المدخل إلى قصر الله. وهناك أيها الأصدقاء، لا يُقتل إنسان من أجل عقائده. فابتهجوا إذاً واستبشروا، ولا تأسوا على فراقى. وقولوا حين تودعوننى القبر إنكم إنما دفنتم جسدى لا روحى».

فهل هناك حب لحقائق الوجود فى كل صورها أعظم من هذا الحب ؟ وكان العدل فى مقدمة هذه الحقائق أو القيم. ولذلك أسس أفلاطون أكاديميته، وشرع يعلم وينشر فلسفة سقراط التى كانت رسالتها الجوهرية هى إقرار العدل بين الناس. العدل الذى يصفه سقراط بأنه العادة الحقة التى لا سعادة سواها، وما من بائس سوى الظالم نفسه. فالعدل ينطوى على كل القيم التى تجعل من الإنسان إنساناً حقيقياً : قيم الحب والحق والفضيلة والسلام والحكمة والمعرفة، أما الظلم فلا يحتوى إلا على قيم الكراهية والحقد والباطل والرذيلة والصراع والفوضى والانتقام والطيش والجهل بأروع ما تنطوى عليه النفس البشرية. فى البداية سار أفلاطون على نهج أستاذه فنادى بضرورة الاستقامة فى الفرد، والعدالة فى الدولة، لأنه بدون عنصرى الاستقامة والعدالة، تتحول الحياة إلى جحيم مستعر بالكراهية والحقد والانتقام والتدمير والخراب والفوضى. أما إذا توافر هذان العنصران، فالحب هو الدستور والسيد والنظام الذى أقام عليه أفلاطون مدينته الفاضلة، أو جمهوريته المثالية، وذلك فى زمن

كانت أنياب الكراهية والحقد والانتقام تنهش كل الولايات أو المدن اليونانية، لكن سرعان ما نأى أفلاطون عن منهج أستاذه لدرجة التناقض معه.

إن مفهوم العدالة عند أفلاطون لم يكن بهذه الصلة الوثيقة بالحب، إذا ما طالعنا رأى الفيلسوف المعاصر كارل بوبر الذى أكد فى كتابه « المجتمع المفتوح » أنه :

«كان لسقراط خليفة جليل واحد، وهو صديقه القديم أنتستنيس آخر الجيل العظيم. أما أفلاطون أعظم حوارييه الموهوبين فسرعان ما أثبت أنه أقلهم أمانة لمذهبه ؛ لقد خان عهد سقراط كما فعل أعمامه ؛ فإن هؤلاء إلى جانب أنهم خانوا سقراط، حاولوا أن يربطوا فكره بأعمالهم الإرهابية، لكنه قاوم محاولتهم فأخفقوا فى تحقيقها. وقد حاول أفلاطون أن يقحم سقراط فى محاولته الضخمة التى أراد بها إقامة نظرية المجتمع المغلق غير المتحرك، ولم يكن نجاحه فى هذه المهمة مستحيلاً لأن سقراط كان قد مات.

«أنا أعلم بالطبع أن هذا الحكم سيبدو صارماً قاسياً حتى فى نظر نقاد أفلاطون، لكننا إذا اعتبرنا محاورتى «الدفاع» و«كريتون» معبرتين عن رغبة سقراط الأخيرة، وقارنا بين هذه الوصايا التى أعلنها فى شيخوخته، وبين وصية أفلاطون فى كتاب «القوانين»، وجدنا من اليسير أن نصدر حكماً غير الحكم الذى أسلفناه. لقد أعدم سقراط، لكن موته أحدث تداعيات لم

يقصد إليها الذين قدموه للمحاكمة. أما كتاب «القوانين» لأفلاطون فقد تجنب هذه التداعيات تماماً، بل ومهدت هذه القوانين، بكل هدوء وعناية، لنظرية محاكم التفتيش، وأعلنت أن التفكير الحر، ونقد النظم السياسية، وتعليم الشباب أفكاراً جديدة، والقيام بمحاولات لإدخال عادات دينية بل اراء دينية، كل هذا من باب ارتكاب الجرائم التى تستحق الإعدام. وفى دولة أفلاطون ما كان يمكن أن يمنح سقراط فرصة الدفاع عن نفسه علانية أمام الجماهير، بل كان من المتوقع أن يتم تسليمه إلى المجلس الليلى « لعلاج » روحه المريضة، ثم لإيقاع العقاب بها آخر الأمر».

هكذا قام المفهوم الاجتماعى والتربوى والسياسى للحب عند أفلاطون على الجبر والقسر من السلطة الأعلى. ولم يدرك – أو كان يدرك – أن القهر إذا دخل من الباب، هرب الحب من النافذة. أى أن منظوره للحب يحمل فى طياته ما يدحضه وينقضه من أساسه. لقد بدأ أفلاطون سقراطياً، ديمقراطياً، إنسانياً، لكن سرعان ما أصبح ديكتاتورياً، شمولياً، منذ اعتنق فكرة الحق المتعالى على الطبيعة المحسوسة. الحق المتعالى الذى ينظر إلى البشر على أنهم مجرد حيوانات أو حشرات لابد أن ترضخ تماماً ودون تفكير لأولى الأمر من الحكماء والفلاسفة، بل ويتحتم على هؤلاء المحكومين أن يشعروا بالحب تجاه حكامهم كنوع من رد الجميل لرعايتهم الحكيمة لهم. وكانت النتيجة أن

هبط أفلاطون إلى مستوى الدعاية السياسية المباشرة لمذهب معين، وأساليب التفتيش التى تحاكم المرء على نواياه ومشاعره الدفينة لا على آرائه وأفكاره المعلنة فحسب. كذلك أباح أفلاطون كل الوسائل التى تحافظ على دولته الشمولية بما فيها الكذب المفيد والتلاعب بعقول الناس. إنه يرى ضرورة الحب بين السلطة والشعب لاستمرار النظام واستقراره. وهذه بدهية لا يمكن إنكارها، لكنها فى الوقت نفسه تحتاج إلى إضافة ضرورية وإنسانية لا يمكن التغاضى عنها أبداً، وهى الحرية بصفتها الوجه الآخر للنظام الإنسانى. فالحرية بدون نظام هى فوضى، والنظام بدون حرية هو القهر بعينه، وكلما كانت المسافة الزمنية تتسع وتمتد بين أفلاطون وسقراط، كان ميله إلى النظام الذى لا يعترف بالحرية الفردية يشتد ويترسخ حتى انتهى به الأمر إلى تطبيق مفهومه البيولوجى والجنسى للحب على مفهومه الاجتماعى والتربوى والسياسى له حتى تطابقا إلى حد بعيد.

لم يستطع أفلاطون أن يفهم أنه يجب ألا تنفصل العدالة عن الحب، كما أن الحب بغير عدالة ضلال وفوضى وخطر. فكلاهما ضرورى للآخر لأن العدالة بدون حب تفقد ما فيها من معانى الإنسانية بحيث يمكن القول بأن العدالة المجردة قريبة من الظلم قرباً ينذر بالخطر. وهكذا ضحى أفلاطون فى سبيل معتقداته السياسية والاجتماعية والتربوية التعسفية، بالمثل العليا السمحة التى آمن بها سقراط، وبير كليز، وأنتستينس، وديمقريطس،

وجورجياس وغيرهم من الذين أكدوا على ضرورة الديمقراطية والحرية والحب والصداقة. ولذلك فإن المدينة الفاضلة أو الجمهورية المثالية التى نادى بها أفلاطون، تبدو متناغمة ومتحابة، ومنظمة، من الخارج، أما من الداخل فتبدو على حقيقتها الزاخرة بالكبت والطغيان والقهر والعسف والديكتاتورية، وإن كانت تدعى أن النظام البديع المتناسق الذى تبدو به، ينهض على الحب والعدالة والوئام والطاعة الاختيارية.

لكن كان من المستحيل أن يسود الحب فى جمهورية أفلاطون المثالية، وهو الذى أكره مواطنيه على نبذ معتقداتهم الأثيرة، واعتناق آرائه التى تهدر إنسانيتهم، وإلا كان عقابهم الإعدام أو السجن، وكأنه لم يكن يدرك أن قيم العدالة والحق ومشاعر الحب والصداقة لا يمكن أن تنبع إلا من داخل الإنسان بكل تلقائية وعفوية وطواعية، أما إذا فرضت عليه من خارجه فإنها تفقد خصائصها الجوهرية، بل إنها تتحول إلى النقيض منها تماماً. فالحب المفروض من السلطة هو الكراهية بعينها، والصداقة عداوة، والعدالة ظلم، والحق باطل. فهى كلها قيم ومشاعر يملكها جميع الناس بلا تفرقة فيما بينهم، وتتدفق بينهم دون أن يفرضها طرف على آخر بحجة أنه يملك معرفة أشمل، أو حكمة أعمق من التى يملكها الآخرون. فالحياة أرض مشتركة يقف عليها جميع البشر، أو طريق لابد من الالتقاء

بينهم عند منتصفه، بحيث لا يقدم طرف فروض الطاعة العمياء للطرف الآخر الذى يعتقد أن له الحق كل الحق فى أن يأتمر الآخرون بأمره دون نقاش أو تفاهم.

هذا هو النظام الاجتماعى والسياسى والتربوى الذى تصوره أفلاطون. فتحت وطأة هذا النظام الحديدى حرم أفلاطون كل أنواع الحرية وفى مقدمتها حرية المناقشة وابداء الرأى. والجدير بالملاحظة أنه لم يهتم بمدى مصداقية هذا النظام، وإنما كان مهتماً بأثره من الناحية التربوية والأخلاقية. كان على استعداد لترسيخ أهدافه الأخلاقية والتربوية حتى لو كانت وسيلته إلى ذلك وسيلة غير تربوية. فالتربية الديمقراطية هى خير وسائل التربية الفعالة والمؤثرة لأنها تتعامل مع ثوابت النفس البشرية التى تميل بطبيعتها إلى تأكيد ذاتها واحترامها. أما التربية الديكتاتورية فتفرض نفسها على المواطنين بأسلحة التخويف والإرهاب والضغط والقهر والعسف وغير ذلك من الأسلحة المضادة للكيان الإنسانى وكرامته، والمولدة للكراهية التى لا ينتج عنها سوى كراهية مضادة، وهكذا يدخل المجتمع فى حلقة مفرغة، ودوامة لا تتوقف من الكراهية والكراهية المضادة، من القهر والقهر المضاد وهكذا إلى أن ينهار بنيانه تماماً.

وهذا ما جرى بالفعل بين الولايات والمدن اليونانية فى عصر أفلاطون الذى ظن أن نظامه الحديدى الذى ابتكره فى محاوراته كفيل بالقضاء على هذه الصراعات والتمزقات

والانقسامات والمعارك والحروب، فى حين أن القهر لا يولد سوى القهر، والكبت لا يولد سوى الانفجار. فلا يمكن إطفاء النار بسكب المزيد من الزيت عليها. وإذا كان كل شئ فى هذه الحياة لا يلد شيئا إلا من جنسه، فالحب يلد الحب، والصداقة تلد الصداقة، والسلام يولد مزيداً من السلام، والحرية تبحث دائماً عن آفاق جديدة للحرية الإنسانية الحقة، فإن الحكومة التى تضع هذه البدهيات فى اعتبارها وتتصرف على أساسها، لا يمكن أن تضل طريقها نحو إقامة مجتمع يغمره الحب والحق والعدل والخير والصداقة والسلام.

إن المثل الأعلى للكمال المتحجر والطغيان الشيوعى عند أفلاطون، لم تنشأ عنهما كراهية الحرية وحدها، بل ترتب عليهما مقت النزعة الفردية فى كل صورها. أى أن أفلاطون لا يسمح للإنسان أن يحب نفسه أيضاً. وحملته على النزعة الفردية ملتوية ماكرة، استغل فيها مهارته المنطقية فى اللعب بالألفاظ. فمن المعروف أن النزعة الفردية قد تتعارض مع النزعة الجماعية، وتتنافى الأنانية مع الغيرية، لكن أفلاطون ساوى بين الحدين الأولين والحدين الأخيرين فى هذه المتقابلات (أى بين الفردية والأنانية، وبين الجماعية والغيرية)، ثم انتهى إلى أن الفردية تتنافى مع الغيرية دون أن يهتم كثيراً بتقديم برهان قاطع على ذلك. وهو يؤمن بأن الإنسان الذى لا يستطيع أن يكون شيوعياً، هو فى حقيقة أمره مجرد حيوان أنانى لا يمكنه الخروج من

قفص الذات المسجون فيه. وقد أثبت التاريخ فيما بعد الخطأ الفادح الذى ارتكبه أفلاطون فى تصوره لنظام الحكم الشمولى، إذ تعرت الشيوعية من كل الشعارات البراقة التى نادت بحماية الكادحين والمنتجين والعاملين، وسقطت من تلقاء نفسها لأنها نظام مضاد للطبيعة البشرية، وكان سقوط الاتحاد السوفيتى وتفتته وانهياره فى العقد الأخير من القرن العشرين بعد الميلاد، خير دليل على أن أى نظام لا يقيم وزناً للكيان الإنسانى مصيره الاندثار مهما طال به الأمد. فالعقيدة السياسية والاجتماعية والتربوية هى مجرد وسيلة لخدمة الإنسان الذى هو غايتها النهائية، أما وضع الإنسان فى خدمة العقيدة، فهو تحويل الوسيلة إلى غاية وقلب الأمور رأساً على عقب.

ولم يرفض أفلاطون النزعة الفردية فحسب، بل إنه لم يشعر بأى احترام للشخصية الإنسانية. وهو التوجه الذى تكرر أكثر من مرة فى كتابه « القوانين ». فالإنسان فى نظره هو مجرد وحدة من الوحدات العديدة التى ينهض عليها النظام السياسى والاجتماعى الذى يتصوره. إنه نظام يدعى أنه يحب الإنسان ويرعاه ويعمل على رقيه وسعادته، لكنه فى الوقت نفسه يعمل على سحق كيانه الفردى وإلغاء ذاته المتميزة حتى يصبح فرداً من أفراد قطيع يسير إلى أهداف لا يعيها سوى قائده وإذا كان أفلاطون قد وصف دولته الشيوعية هذه بالمثالية، فهى مثالية فى نظر نفسها فحسب، لكنها فى نظر مواطنيها الواعين

بحقيقتها لا تمت للمثالية بصلة من قريب أو بعيد، أو لعلها مثالية فى طغيانها وبطشها وقهرها وسحقها لكل من يقف فى طريقها ؛ مثالية فى قهرها للحب وإحلال الكراهية محله، فى تحويل التناغم إلى صراع مكبوت، فى جلوسها على فوهة بركان تظنها قمة العالم التى تتربع عليها. فالمثالية يمكن أن تعمل من أجل الخير الخالص، وأيضاً من أجل الشر الخالص، بمعنى أن هناك خيراً مثالياً وكذلك شراً مثالياً هو بمثابة النموذج الذى يحتذيه كل من تسول له نفسه أن يسلك طريق الشر كأسرع طريق للتحكم فى أعناق الآخرين. يقول أفلاطون فى كتاب «القوانين» :

« إن أول وأسمى صورة من صور الدول والحكومات والقوانين هى الصورة التى يسود فيها المثل القديم الذى يقول : «كل الأشياء تكون بين الأصدقاء على المشاع». وهذه الشيوعية فى النساء والأطفال والملكية - سواء أكانت موجودة الآن فى أى مكان أو ستكون موجودة يوما ما - هذه الشيوعية التى تختفى معها فردية الإنسان وتتلاشى فيها خصوصياته، كذلك الأشياء التى هى بطبيعتها خاصة به كالأعين والآذان والأيدى، بحيث تصبح على المشاع، فيشترك الناس فى النظر والاستماع والتصرف، وبالتالى يعبرون جميعهم عن المدح والذم، بل ويشعرون بالابتهاج والأسف فى ظروف واحدة، فتعمل القوانين على توحيد المدينة إلى أقصى حد، سواء أكان هذا ممكن التحقيق

أم غير ممكن، فإننى أصرح بأن ليس ثمة إنسان يعمل بمقتضى أى مبدأ آخر غير هذا المبدأ الشيوعى، يستطيع أن ينشىء دولة مثالية يمكن أن تكون أصدق أو أفضل أو أسمى من هذه الدولة الشيوعية».

لكن الظاهرة الشاذة الجديرة بالتسجيل أن أفلاطون الذى هاجم النزعة الفردية من أجل نظام شمولى بغيض، أعتبر عبر عصور عديدة، خاصة فى عصر النهضة، رائداً من رواد النزعة الإنسانية، التى ترى فى الإنسان، الوسيلة والغاية من هذه الحياة برمتها. وهذا دليل على أن أفلاطون تحول مع الزمن إلى أسطورة، أو ذات مصونة لا تمس، أو صنم يتعبد فى محرابه الكثيرون دون أن يدركوا حقيقة معتقداته. ولعل هذا هو السبب فى الأفكار الخاطئة التى شاعت عن مثاليته، وتحولت فى أحيان كثيرة إلى ما يشبه الحقائق الراسخة التى لا تقبل الجدل والتى كانت فى جوهرها نقيضها بمعنى الكلمة. ولا شك أن أفلاطون نفسه ساهم فى رسم هذه الصورة الزائفة عن نفسه وفلسفته، إذ أنه كرر بل وأكد قوله بأن جمهوريته هى تجسيد حى وعملى للعدالة الإنسانية بكل أبعادها. واعتمد المفكرون والمحللون على هذه الصورة الزائفة على أساس أنها صادرة عن أفلاطون نفسه، وأهملوا التحليل العلمى الدقيق والتفسير المنطقى الشامل لحقيقة آرائه ومبادئه وأقواله.

ويعرف أفلاطون العدالة بأنها ما يجب أن يكون فى مصلحة الدولة، أما المصلحة الشخصية للمواطن فلا يعيرها

التـفـاتاً. فـالمدينة تصـبح عـادلة فى نظـره حين تكون الـطوائف والفـئات مـحـددة وغير قـابلة للـتـغيـر، وحين يلـزم كل فـرد مكانه المرسـوم والمخـصـص له، وحين يقـبل جـمـيـع الناس طواعـيـة مـبـدأ الطبـقـة الحـاكـمـة بصـفـتـهـا رأس الدولة وعـقـلهـا المفكر، والامـتـيـاز الطبـقى الذى يفـرق بين الذين يُعمـلـون فكرهـم والذين يَعـمـلون بأيديهم وأجـسـامـهم. وفكرة أفـلاطون عن المجـتـمـع هـى فكرة اسـتـاتيكيـة تـصـبـه فى قـوال حـجـرية بصـفـة كـيـانـاً سـكونيـاً، بلغ مـرحلة مثالية لا تطور بعدها، لأنه سيكون إلى أسوأ. فالمدينة التى أحـسـن تنظيمـهـا، والتى لا تقبـل التـغـيـر، هـى رمز العـدالة الأبدية. لكن كـان من الطبـيـعى أن يتـم اختـيـار أفـلاطون للـعـدالة لكى يؤيد نظام الحـكم الاسـتـبـدادى المطلق، فى حين كـانت الـفـكرة الشـائعـة بين الناس عن مـعنى العـدالة عنـد أفلاطون على النقـيض تمامـاً من هذا التـعـريـف. ولذلك يمكن اعـتـبـار أفـلاطون الأب الـروحى لكل النظم الديـكتـاتورية والفـاشـيـة والـشـمـولية والشـيـوعـيـة والنازية وغيرهـا.

ولنتـأمـل دولتـه المثـاليـة بـدقـة. إن الجـمـهـورية التـى أنشـأهـا كنموذج مـثـالى صـغيـر، صـغيـرة صـغر أثينا، فكيف يتـسـنى لهـا أن تعـزل نفسـهـا عن العـالم لتتـجنب سـوءاته وسـلبياته ؟ إن سـكان هـذه الـجـمـهـورية مقـسـمـون إلى ثلاث طبـقـات، تـقـسـيمـاً لابـد أن يشـعـل نيـران الحـقـد والكراهـيـة والصـراع المكبـوت أو المفتـوح فيـمـا بينهـا. فـالطبـقـة التى على قـمـة الدولة هى طبـقـة الحـكام، ثم يليـهـا طبـقـة

الجنود أو الحراس، وأخيراً طبقة الشعب التى تمثل على أقل تقدير ثمانين فى المائة من مجموع السكان، وربما كانت هذه النسبة تشتمل على العبيد أيضاً. ويرى أفلاطون أن هذه الطبقات الثلاث طبقات طبيعية وليست مصطنعة اجتماعياً، فهو يقارنها بما أسماه بالنفوس الثلاث التى يحيا بها جسم الإنسان، وهى الناطقة والغضبية والشهوانية، فالحكام هم عقل الدولة، لأن الطبقات الدنيا لا تسيرها إلا شهوات فجة، بل لعل الأصح أن نقول إن المواطنين فى جمهورية أفلاطون كانوا مقسمين إلى طبقتين اثنتين هما : طبقة الحكام ومساعديهم أو بالأحرى المنتفعين بهم من ناحية، وطبقة المحكومين من ناحية أخرى. فالواقع أن الفرق بين الطبقتين الأوليين (الحكام والجنود) ليس كبيراً، ومن السهل تجاوزه وإغفاله، خاصة أن المساعدين كلما تقدموا فى السن قلت صلاحيتهم للجندية، وزادت صلاحيتهم لمباشرة التأمل العقلى، وقد يؤدى بهم هذا إلى القمة. لكنه يستحيل عبور الهوة بين الحكام والشعب، فلا يفصل بين الطائفتين فارق مؤقت من ناحية الطبقة أو المهنة، بل يقوم بينهما فارق دائم من ناحية الجنس أو العنصر الذى انحدروا منه أو الطائفة التى ينتمون إليها.

وفى محاورة «السياسى» يشبه أفلاطون حكام الدولة بالرعاة، وهذه المقارنة وما يشبهها تتردد كثيراً فى محاورات أفلاطون وكتاباته. فالحكام رعاة، والحراس هم الكلاب، والشعب هو القطيع. وفن حكم الناس لا يختلف كثيراً عن فن التحكم فى

الماشية وتربيتها. وعندما يقول الحكام : «نحن الدولة» ، فهم لا يبالغون ولا يتباهون لأنهم هم الدولة بالفعل، ولذلك فإن طبقتهم كهيئة لا يمكن أن يسوسها أحد سواها، وعن طريق حكمتها تعرف ما هو خير لغيرها، أى للسواد الأعظم من السكان. ولضمان ضبط النفس فى هذه الأوليجاركية الوراثية التى تضع مقاليد الحكم فى يد الطبقة الغنية الأرستقراطية الإقطاعية، ولضمان ولائها التام للدولة - أى لنفسها - يتعين حمايتها من العوامل التى تؤدى إلى الشقاق والصراع والحقد والانتقام والفساد والتدهور، وأهمها الجشع المالى والشراهة الجنسية، ولهذا لم يجد أفلاطون مناصاً من أن يفرض على الصفوة الحاكمة والحراس أو العسكريين فى الجمهورية، قبول الشيوعية التى لا تقتصر على شيوعية الملكية فحسب، بل تشمل شيوعية الزوجات والأطفال. وهذا لا يعنى العهر أو الفجور أو فوضى العلاقات بين الرجال والنساء، بل يعنى ألا يختص رجل بامرأة بعينها مدى الحياة فليست هناك مشكلات أو مخاوف طالما أن هذه العلاقات تمارس فى إطار الطبقة العليا دون أى اقتراب أو تلامس مع الطبقات الدنيا، وخاصة أن كل المواطنين من الطبقة العليا إخوة، والأطفال مشاع لأنهم لا يعرفون أسرة سوى الدولة. أى أن ممارسة الحب رهن بالحواجز الطبقية التى لا يمكن تخطيها أو تجاوزها.

ومما يدل على نظرة أفلاطون الطبقية والعنصرية الضيقة، احتقاره الشديد للطبقة العاملة والكادحة، وذلك برغم أنه عاش فى

عصر ذهبى ابتدع فيه المهندسون المعماريون والفنانون المثالون إبداعات معمارية ونحتية خلدت على مر الزمن، ودلت على مهارة الصناع والعمال الذين قاموا بإخراجها إلى حيز الوجود بعد أن كانت مجرد تصور فى مخيلة المعماريين والفنانين. ومع ذلك لم يكن للصناع والعمال فى نظر أفلاطون أى شأن أو اعتبار. فكل العمال من الدهماء والغوغاء والقطيع الذى يتحرك بدون تفكير أو روية، لدرجة أنه يعرفهم بأنهم مجرد بهائم منحطة التفكير، كل همها فى الحياة أن تملأ بطونها وتشبع رغباتها المنحطة، دون أن يكون لها مثل عليا من أى نوع.

وكلما توغل الدارس فى تحليل مفاهيم الحب الأفلاطونى، فلابد أن يدرك مدى التخبط والتناقض والتحيز والتعصب الذى وقع فيه أفلاطون. فهو يفطن مثلاً إلى أن الرغبات والشهوات، مثل حب الأسرة وحب المال، عامل من عوامل الانحلال، لكنه لم يفطن إلى أن الشهوات الأخرى يمكن أن تكون خطرة ومدمرة بدورها، وفى مقدمتها تلك التى تصدر عن حب النفوذ والسلطان. وليس حب المال إلا مظهراً من مظاهره. فالناس لا يحبون المال إلا من أجل السلطان الذى يتيحه المال لهم، وهو شهوة جامحة تكاد تقتصر على أفراد الطبقة العليا الذين يكن لهم أفلاطون كل إعزاز وتقدير. وكان أفلاطون يخاف الملكية خوفاً شديداً، ولا سيما ملكية المال، ملكية الذهب والفضة. لكنه لم يسأل نفسه سؤالاً مهماً على طريقة أستاذه سقراط : هل إذا بطلت قيمة المال، أى

فقد المال قوته الشرائية وأصبح مجرد قطع معدنية، اختفى الجشع ؟ إن أفلاطون لم يدرك أن الجشع جزء من الطبيعة البشرية، يحتاج إلى إرادة حديدية لقهره، وأن المثل المصرى أو العربى الذى يقول بأن عين الإنسان لا يملؤها سوى التراب خير معبر عن هذه الحقيقة الجوهرية، بمعنى أن الفيلسوف العربى الشعبى المجهول استطاع أن يدرك ما لم يدركه أفلاطون. فالجشع البشرى يستطيع أن يكيف نفسه طبقاً لأية ظروف جديدة أو طارئة. والطمع فى السلطان والسطوة لا يمكن استئصاله من نفوس البشر، وحتى حين تهيأت السلطة للصفوة أو للعسكريين وأصبحوا سادة الجماهير بصورة عملية قاطعة، وتمتعت طبقتهم بكل امتيازات السيادة والسطوة، لم يخل الأمر من وجود الصراع بينهم، خاصة النزاع القائم والمتجدد حول من يتربع على دست الحكم. وليس من المستبعد أن يكون أفلاطون قد تابع مثل هذه الصراعات والنزعات، لكن يبدو أن إصراره على ترسيخ صورة جمهوريته المثالية فى أذهان تلاميذه ومريديه، جعله يتجاهل الواقع كأنه لم يكن. وقد دفع ثمن هذا التجاهل الذى جعل من مدينته الفاضلة، فى نظره، مجرد صورة خيالية غير قابلة للتطبيق عبر العصور. لقد حاول أن يكسب أوهامه منطقاً مقنعاً، لكن برغم براعته المنطقية لم يستطع أن يتخطى أسوار هذه الأوهام.

ومن مظاهر التناقض الصارخ فى منطق أفلاطون أنه حاول الجمع بين الأرستقراطية والشيوعية، بين التوجهات

الإقطاعية والإلغاء التام للملكية، بين السيادة والعبودية. ذلك أن الشيوعية المتكاملة عند أفلاطون كانت قاصرة على الطبقات العليا وحدها، أما الطبقات الدنيا فإنها تفتقر فى نظره إلى مزاولة الأخلاق السامية، ولهذا كان من حقها أن تنغمس فى شهواتها ورغباتها ونزواتها ما طاب لها ذلك، فلا جناح عليها لأنها نتاج طبيعى لبيئتها، وذلك بشرط أن يلتزم أفرادها الهدوء والطاعة، وأن تكون آراؤهم طيبة، على حد قوله الذى يقصد به أن يكونوا متمسكين بنظام الدولة، لا يخرجون عنه، وهذا فى بساطة مظهر عميق من مظاهر الطاعة العمياء إلى حد كبير.

وكان أفلاطون ابناً نجيباً لعصره وليس خارجاً عن إطاره كما ادعى. ولذلك لا يمكن فهم ميوله الشيوعية الخاصة به إلا إذا حللنا مدى انتمائه إلى أرستقراطية طبقته ورأسمالية عصره المتضخمة. لقد كان الأرستقراطيون القدامى – وأفلاطون واحد منهم – بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن ينازعهم امتيازاتهم الطبقية، خاصة الأثرياء المحدثون الذين صعدوا فى غفلة من الزمن من طبقاتهم المنحطة بكل عاداتهم الوضيعة على حد قول أفلاطون، بل وربما كان بعضهم من طبقة العبيد.

إن الطبيعة البشرية لا تتغير بتغير المكان أو الزمان، إلا فى بعض مظاهرها الخارجية والعابرة، أما خصائصها الجوهرية فتظل كما هى ولذلك يشق كثيراً على أى فرد من الصفوة الأرستقراطية الغنية أن يشعر بأن طارئاً اقتحم عليه طبقته ليطرده

منهـا ويخـرجـه من زمـرته. ولذلك رأى أفـلاطون أنـه إذا كـان المال يستطيع أن يقـضـى على التمايز الطبيـعى بين السادة ومن هـم أقل منهم، فليذهب المال إلى غير رجعة. بل إن أفلاطون لا يسـعى فقط إلى تحطيم المال والملكية، بـل يسـعـى إلى تطبيق شـيوعـيـة النسـاء والأطفال، أى القضاء على روح الأسـرة عند الصـفوة الأرستقراطية قـضـاءً مـبـرماً. إن جـمـهـوريـة أفـلاطون تفـتـقـت عن ذهن رجل متـعـصـب، محنق، متـذمر، حانق، حـاقد، لا يعرف الحب الحقـيقى طريقاً إلى قلبه، وهـذه ظاهـرة مثيرة للدهشـة والتعجب والحـيرة. إن أفلاطون لم يتزوج أبداً، لكنه عاش صبـاه ومراهقته فى ظل أبيه وأمه وفى أحضان أسرته الصغيـرة بطبيعة الأمر. فهل أساء أبواه مـعـاملتـه، فـشـعـر منذ مطـلـع حـياته أن الأسـرة مـا هـى إلا سـجن صغيـر ؟ إن شيوعيـة أفلاطون فى الملكية يمكن تفسيرهـا بنظرته الثاقبة وعدم انخداعه بالثـراء الفاحش والغبى والمستفز الذى يحيل الإنســـان إلى وحش لا يشـــبع ولا يـرتوى أبـداً، ولذلـك دفـــعـــه اشمئزازه من هـذه الظاهـرة الفاسدة إلى شـجبها ومـحـاربتها وذلك بإشـهار نقـيضـهـا فى وجـهـها. أمـا شـيـوعـيـة النسـاء والأطفـال عنده فـلا يمكـن تفـسـيـرهـا بهـذا المـفـهـوم لأن المجـتـمـع الأثينـى لم يكن مـتـزمـتاً فى مـجـال العـلاقـات الجـنسـيـة والغـرامـيـة، ولـذلك فـإن تفسيـرهـا الوحيد يكمن فى أن أفلاطون كـان منحرفاً جنسياً، ولم يعش حياة سوية طبيعية تجنبه مثل هـذا الانحراف.

لكن هناك جوانب وأبعاداً أخرى للصورة لابد من الإلمام بها حتى تكتمل فى أذهاننا، خاصة تلك المتعلقة بالخلفيات التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الكئيبة التى عاصرها أفلاطون. كان ذا ثراء، لكن ثراءه لم يمنحه السعادة. ولم يستطع من خلال علاقاته ببعض حكام الأوليجاركية (الأرستقراطية الغنية) أن يقلل من وطأة الفوضى السياسية والأحقاد التى كانت تؤلمه إيلاماً شديداً. كما كانت إدانة أصدقائه وإعدام أستاذه العظيم سقراط فوق ما تحتمل طاقته. فلم تكن أثينا فى أيامه سارة إلى حد يثير تأملاته وحماسه للتغيير والتطوير. وكانت إسبرطة وكريت تبدوان فى نظره - دون أن يتصل بهما - أفضل منها. وعندما كان يكتب «الجمهورية»، كانت أوهامه قد انقشعت بالفعل غشاوتها عن عينيه، فشرع فى الهروب من الواقع واللجوء إلى عالم الأحلام المثالية. كان اليأس من الأحوال السياسية والأحقاد المتفشية هو القوة التى حفزته إلى ذلك.

إن الأهواء والطموحات والأحقاد السياسية تبدو فى أغلب حالاتها عميقة ومرة ومدمرة بحيث تملأ قلب الإنسان ضيقاً ملحاً وبغضاً شديداً، وتدفعه إلى ارتكاب أفعال شائنة. رأى أفلاطون الشر والفوضى التى تضرب أطنابها حوله، وعانى هو نفسه مرارة القنوط والخيبة فبحث عن الحب والسلام والتناغم والوئام والنظام والخير والحق والجمال فى عالم خيالى ومثالى من صنع أوهامه، وهو يرى الأمور تزداد سوءاً. ولا شك أن

الأكاديمية التى أنشأها كانت مهد تذمر وتبرم من المفكرين والمثقفين الذين يترددون عليها. وقد تبلور هذا التمرد الفكرى فى كتاب « القوانين » الذى بدا فيه أفلاطون رجلاً طاعناً فى السن، محنقاً، متذمراً تملؤه الضغينة، يخاف الجماهير ويبغضها، ويخشى فوق كل شىء زعماء الجماهير ويكرههم. وقد تبلورت أحكامه المبتسرة وأوهامه الأثيرة فى كتابات لا تمت للواقع الإنسانى أو النفس البشرية بصلة من قريب أو بعيد، وأصبح فيلسوفاً مسناً مولعاً بالنظر المجرد حتى أعجزته نزعته النظرية التجريدية الواهمة عن أن يدرك مدى مصداقية الآراء التى ينادى بها، أو يستوعب أصداء هذه الآراء عند أبناء عصره، ونسبة استجابتهم لها. بل وبلغ به التطرف - وهو النبيل الأثينى - أن أعلن عن إعجابه بالإسبرطيين الذين سحقوا وطنه وأذلوه، كما أن تراثهم العلمى والأدبى والثقافى والحضارى يبدو فى منتهى التفاهة والسطحية إذا ما قورن بتراث أثينا العظيم الذى يمارسه تأثيراته على العقل الإنسانى حتى الآن. وهذه الدراسة التى تدور حول الحب الأفلاطونى، والتى كتبت والقرن الحادى والعشرون قادم بعد عامين فقط من الآن، لدليل عملى على الاهتمام المتجدد بالتراث الأثينى.

وبرغم أن أفلاطون كان عاشقاً للعلوم الرياضية، فإن فهمه لمعطيات عصره ومجتمعه لم يكن علمياً بمعنى الكلمة، بل كان

فلسفياً ونظرياً لدرجة اجترار الأوهام والمثل التى تتجاهل أو تجهل الحقائق والوقائع. وهناك كثيرون من السذج الذين يعتقدون أن المثاليين يحتكرون المثل لأنهم يؤثرون المثل العليا على الحقائق والوقائع التى يحاولون لى عنقها ليفسروها تفسيراً مثالياً. أما العلماء فلهم مثلهم الخاصة بهم، لكنهم لا يجعلون الحقائق والوقائع أدنى منزلة وقيمة من هذه المثل. إن مثلهم تصدر عن الحقائق وتتعامل مع الوقائع فى محاولة لتطويرها وتجديدها وإعادة صياغتها. إنها مُثل لا تتجاوز هذه الحقائق التى يرجو الإنسان أن يفسرها بحيث يدنو من الحقيقة ما أمكنه ذلك. ولذلك فإن أفلاطون لا يستحق - إلى حد كبير - المجد الذى ناله عبر العصور، لأننا لا نستطيع أن نمجد الناس من أجل مثلهم السلبية وشطحاتهم الخيالية الواهمة التى لا يملكون لها ضبطاً، وإنما نمجد أفكارهم الإيجابية الفعالة وأفعالهم المادية الملموسة، ذلك أن المثل العليا البراقة التى لا مسوغ لها ولا مبرر، لا تقود لغير النفاق والشك والفوضى والوهم والضياع.

كان هدف أفلاطون إقامة الدولة التى تتمتع بالنظام والتناغم وعلاقات الحب بين أفرادها، وتتجنب كل مساوئ عصره وأحقاد مجتمعه. لكنه من المستحيل تصور أن مثل هذه الدولة، على النحو الذى بدت به فى «الجمهورية» أو حتى فى صورتها المعتدلة أو المعدلة فى «القوانين»، يمكن أن توجد فعلاً، برغم حماس أفلاطون لها حماساً لا يعرف حدوداً. إنه يفترض أن الرعية لاتكن

للحكام سوى الحب فى هذه الجمهورية الغريبة الشاذة، ذلك لأنهم يملكون الحكمة والقدرة بحيث يستطيعون المحافظة على بقائها وكيانها المثالى. لكن كيف تطمئن الرعية إلى حكمة الذين يخلفونهم فى الحكم ؟ صحيح أن الجمهورية مدينة مثالية، ومن وحى الخيال، لكن فيلسوفاً من قامة أفلاطون لابد أن تنهض أحلامه ومثله على نوع من التناسق والمنطق. وقد كان مثال أفلاطون مثال ثبات وعدم تغير، أما جمهوريته التى تصورها فقد كانت بالضرورة عرضة للتغير وعدم الثبات بحكم أنها تعيش على أرض الواقع المتغير دوماً.

وإذا وضعنا أفلاطون على أرض الواقع، وقد كان كذلك شاء أم أبى، فإننا نجد أنه استمد إلهامه من كراهيته للسياسة الأثينية، وإعجابه بنظم الدوريين فى كل من إسبرطة وكريت. وكان تصوره لنظم إسبرطة فى صورة مثالية تصوراً لا يمكن قبوله، ومع هذا كان متحمساً لها حماسته فى معاداة النظم الأثينية. كذلك لم تكن معرفته بالظروف السياسية لعصره نظرية خالصة مجردة، بل لاحظ أثناء رحلاته وإبان تقلبات حياته السياسية، اختلافات بل وتناقضات لا حصر لها بين المدينة الكاملة التى لم توجد إلا فى ذهنه، والمدن الموجودة فى العالم بالفعل. وقد صنف الحكم فى المدن الموجودة بالفعل إلى ست مجموعات هى: الموناركية المستبدة (حكم حاكم فرد مستبد عادل)، والموناركية

الدستورية، والأوليجاركية (حكم الأغنياء)، والديمقراطية (حكم الأغلبية)، والفوضوية، وأخيراً الطغيان.

وهذه الصور من الحكم قد تخلف إحداها الأخرى فى دورات متتابعة يمكن أن تتكرر بلا حدود، وتتجدد بلا رابط. وهذا البحث الاجتماعى الرائع الذى يمكن أن يجعل من أفلاطون أول عالم اجتماع، دليل على قدرته على دراسة معطيات الواقع وتحليلها بمنهج علمى دقيق. كذلك يعد أقدم باحث عرض لدراسة تاريخ الدستور، وقدم فى كتاب « القوانين » تاريخاً لاضمحلال بلاد فارس وسقوطها، ويعد أول تحليل من نوعه. هذا بالإضافة إلى أنه جمع مادة غزيرة من المعارف التجريبية حين كان مستشاراً لملك سراقوسة ديونيسيوس. وهذا دليل عملى على أن أفلاطون لم تكن تنقصه الخبرة السياسية الكافية للدراسة والتحليل، لكنه كان مسرفاً فى نزعته النظرية المثالية الخيالية إلى حد عاقه عن الإفادة من خبراته. وكانت أحقاده السياسية عنيفة مرة، وأحلامه قوية لدرجة أنها لم تتأثر بالحقائق المتغيرة الزائلة. ولذلك فشل فى تقديم مفهوم اجتماعى وتربوى وسياسى للحب، سواء بين الحاكم والمحكوم أو بين أفراد الرعية.

إن العقيدة الأساسية فى السياسة عند أفلاطون، هى سيادة الدولة سيادة مطلقة، سواء أحب الشعب هذه السيادة أم كرهها. فالدولة وحدها يمكن أن تكون كاملة وأن تكفى نفسها بنفسها فى

حين أن الأفراد هم الناقصون لأنهم نسخ ناقصة للدولة. والدولة وحدها يمكن أن تبقى ثابتة لا تتغير، أما الأفراد فمصيرهم إلى الزوال فى تعاقب سريع. ومن هنا يتحتم على الفرد أن يخضع للدولة، وأن يضحى عند الضرورة فى سبيلها. إن حبها واجب مفروض عليه، وهو مفهوم ينقض معنى الحب تماماً عند أفلاطون لأن الحب إذا لم ينبع بتلقائية وطواعية من قلب الإنسان فإنه يصبح أى شىء إلا كونه حباً. فالدولة لا تستحق كل هذا الحب الذى يصل إلى درجة العبادة لأنها كيان غير كامل ولا يمكن أن يكون كاملاً، وذلك على النقيض تماماً مما يتصوره أفلاطون. بل إن تقريبها إلى الكمال أمر مستحيل طبقا لأفلاطون نفسه الذى لا يسمح بنقدها وتقويمها والعمل على تغييرها حتى تبلغ الكمال الذى ينشده لها. فهو يراها كاملة ولا يريدها كاملة فى الوقت نفسه فى مفارقة غريبة ومحيرة وتدل على مدى التناقض الذى ينطوى عليه فكر أفلاطون . أما إذا كان أفلاطون قد أدرك أن الكمال لله وحده لأراح واستراح ، وخاصة أن له مفهوماً صوفياً وميتافيزيقياً ولاهوتياً للحب ، سنتناوله بالدراسة والتحليل فى الفصل التالى من هذا الكتاب ، كأحد التنويعات الهامة على نظرية الحب الأفلاطونى .

إن الدولة التى تحكم حكماً استبدادياً، دولة لا تعرف الحب أو التصارح أو الفكر المفتوح، وذلك لصعوبة وجود نقد مستقل فيها يصدر عن صدق وإخلاص بل إستحالة هذا النقد. وقد أوضح

أفلاطون أن وجود هذه الطبقة الحاكمة المستبدة لا يكفى، بل يجب أن يكون لها رئيس، قائد مطلق، وبغير وجود قائد يتولى رياستها لا يتيسر لها البقاء. والنتيجة التى توصل أفلاطون إليها هى أن الفلاسفة، يجب أن يصبحوا ملوكا وقادة، أو أن يكون الملوك فلاسفة، وإلا «فلن تتوقف القلاقل فى دولنا ، ولا فى الجنس البشرى فيما أظن» على حد قوله. لقد جرب أفلاطون بنفسه فى سراقوسة استحالة هذا الاقتران بين الملك والفلسفة فى شخصية ملكها ديونيسيوس. فليس من السهل أن يجرد الملك نفسه من نزعاته وأعبائه اليومية ليتعاطى الفلسفة . إن وجود مثل هاتين المهنتين المختلفتين فى شخص واحد وفى الوقت نفسه ، ليس أقل من معجزة. واعتقد أفلاطون أن هذه المشكلة يمكن أن تحل – بمنتهى البساطة – بوضع قوانين ونظم لتربية قادة للمستقبل، فكرس كثيراً من أجزاء «الجمهورية» على شرح أبعاد هذه التربية. لكن النتيجة كانت إتلافاً واضحاً للتربية نظرياً وعملياً .

والحكام الذين يحكمون حكماً استبدادياً مطلقاً، مستهدفون على الدوام لخطر القمع العنيف، كما أنهم لا يحتملون من أتباعهم المقربين استقلال التفكير وأصالته. وهم محاطون بالمنافقين والمرائين والكارهين الذين يتظاهرون بالحب والتفانى فى كل لحظة ؛ والذين يصبحون فى حالات كثيرة خلفاء

لهم . ولكى يتجنب أفلاطون هذا المأزق لجأ إلى نظام الوراثة، وتحديد الخلافة بقانون الدولة الآلى، ولكن حتى هذا الحل ينطوى على مغامرة مخيفة لعدم وجود ضمان حقيقى يثبت كفاءة الوريث فى إدارة دفة الحكم .

ولعل الحل الإيجابى والعملى لهذه المشكلة المزمنة يكمن فى التربية القومية الشاملة التى تؤهل كل المواطنين للمشاركة بالوعى والإدراك والمساهمة الإيجابية فى العمل السياسى بكل مستوياته المتعددة . فلا يكفى أن تكون النظم مثالية وأفضل ما يمكن ، بل يجب تربية وتوعية من سيقومون بإدارة هذه النظم وتحصينها وتطويرها وتجديدها بكل الحماس والحب والانتماء الحقيقى للوطن . والمواطن الصالح المنوط بالقيام بهذه المهمة الحضارية لا يمكن أن ينشأ إلا فى ظل تثقيف ملائم لتحقيق هذا الغرض ، وسط مناخ عام مشبع بالحب والاحترام والمصارحة والديمقراطية والعمل على إخراج أفضل ما تنطوى عليه النفس البشرية من طاقات وإمكانات ومواهب بل وعبقريات . فعندما يشعر المواطن بأن وطنه يحبه ويقدره ، فلابد أن يبادله حباً بحب وتقديراً بتقدير . فالحب علاقة متبادلة بين طرفين ، ولقاء فى منتصف الطريق . أما الحب من طرف واحد فلا يوجد إلا فى «جمهورية أفلاطون» التى تفرضه على المواطن تجاه الدولة دون أن تلتزم بدورها بمراعاته وحبه ، وبالتالى فهو ليس حباً على الإطلاق . ولذلك لم يعد غرض التربية ذلك الغرض الأفلاطونى

الشاذ الذى ينتهى بخلق القادة ، وإنما أصبح هدفاً أميناً يتمثل فى تربية قاعدة شعبية عريضة من المواطنين الخيرين الأفاضل المحبين لوطنهم والمنتمين إليه . وبمرور الوقت يصبح أفضل هؤلاء - أو بالأحرى أصلحهم للسياسة - حكاماً يتمتعون بحب الجماهير لأنهم لن يتحكموا فى رقاب العباد، فهم خاضعون للدستور والقوانين، شأنهم فى ذلك شأن أى مواطن عادى. وهذا هو الحب الذى افتقده المفهوم التربوى والاجتماعى والسياسى لبناء الدولة عند أفلاطون .

** ** **

الفصل الرابع

المفهوم الميتافيزيقى والصوفى للحب

يبدو المفهوم الميتافيزيقى والصوفى للحب عند أفلاطون كنغمة مختلفة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان مع المفاهيم الجنسية والبيولوجية والاجتماعية والسياسية والتربوية التى عالجناها فى الفصلين السابقين . ذلك أنه ينتقل من المجال المادى الدنيوى البحت إلى المجال الميتافيزيقى والصوفى والمثالى الخالص دون أن يكون هناك جسر فيما بينهما . ولعل هذا التناقض يرجع إلى أن أفلاطون فى المجال المادى الدنيوى كان يسعى لفرض نظام على الفوضى التى كانت تجتاح مجتمعه سواء فى العلاقات الجنسية الخاصة أو العلاقات الاجتماعية العامة، أى أنه كان يسبح ضد تيار عصره، أما فى المجال الميتافيزيقى والصوفى والمثالى فكان متأثراً إلى حد كبير وبأسلوب مباشر بالمفاهيم السائدة فى عصره، وكان امتداداً لفلاسفة سابقين عليه أو معاصرين له .

وكان التناقض بين العلم المادى والعقيدة الميتافيزيقية نغمة قديمة فى الفلسفة اليونانية . فمثلاً أعلن إكسينوفان منذ أمد

بعيد أن كل علم البشر عن العالم ليس سوى ظن وتخمين . ثم جاء بارمنيدس بعده ليرى العالم خداعاً خالصاً لا ينهض على حقيقة ملموسة واحدة، مما دفعه إلى البحث عن الكائن الثابت وعن الحقيقة العليا «كما يعرفها الآلهة» على حد قوله. ثم جاء تلميذه زينون فلم يحتفظ إلا بالجزء السلبى من مذهب أستاذه، لدرجة أنه حطم كل علم نظرى عن طريق نقده الهدام . وهناك أيضاً أنبادقليس الذى تتلمذ جورجياس على يديه . لقد كان فيلسوف المفارقات الذى جمع بينها فى حنكة بالغة . فهو على العكس من بارمنيدس قد سلم مباشرة بالحقيقة الإنسانية البسيطة، وسعى لتتبع حدوث العالم وتطوره كحقيقة طبيعية ومادية . لكن هذا لم يمنعه من البحث فيما يتضمنه العالم من «حقيقة إلهية» - على حد قوله - التمسها فى بوارق الإلهام عند الفرق الصوفية التى تعتقد أن حب الذات الإلهية لا يتأتى عن طريق العقل ولكن عن طريق الحدس والتجلى والشفافية .

وضع أفلاطون نصب عينيه أن ثمة حقيقة ثابتة ومثالية لابد أن يبحث عنها بكل الطرق الممكنة . ومن الواضح أنه كان متأثراً بأستاذه سقراط الذى وجد فى البحث عن هذه الحقيقة المطلقة، عقيدة بعثت الحياة فى رؤيته النقدية المتجددة، وسعيه وراء الفكرة الواضحة، وتشدده فى إيجاد التعريف الثابت المحدد الذى يُستخدم قاعدة للفعل الإنسانى معترفا بها من الجميع . ففى سبيل هذه الحقيقة، ومن أجل بلوغ عدالة موضوعية

لاتعتمد على هوى الأفراد، وقاعدة لا تتغير بتغير الأفكار، ضحى سقراط بحياته لكى يجعل منها حقيقة ملموسة لدى الأفراد العاديين الذين لا يدركون كنه الأشياء .

أدرك أفلاطون أن الذى سمم المدينة الفكرة التى سادت ونادت بأن الفرد هو مقياس كل حقيقة وكل قانون، بل إن إحساسه باللذة والألم، ورغباته المعلنة والدفينة، وأفعاله التلقائية والمحسوبة، هى التى تبتكر قانون الأشياء وكيانها، وتصوغ قانون المجتمعات وكيانها . فما من شىء إلا ويصدر عن نفس الإنسان وإرادته . لكن تعدد الميول والرغبات والأحاسيس والطموحات من شخص لآخر، بل ومن وقت لآخر للشخص نفسه، لا يعنى سوى ضياع المعايير التى يمكن أن تقاس بها الأشياء، وبالتالى تتحول الحياة إلى فوضى عارمة . ولذلك إذا أراد الإنسان أن يصلح الحياة العامة، وجب عليه أولاً أن يصلح الأذهان وقوى الإدراك الروحى بحيث تتوجه من أجل ذلك نحو محور ثابت، فتعود إليها فكرة الحقيقة، وينبعث فيها من جديد حب الحقيقة الذى لا يقهر، الحقيقة الموضوعية والمثالية التى لا تتبدل بتبدل الأشخاص أو المجتمعات أو الأزمنة .

تبنى أفلاطون فكرة أستاذه سقراط الذى أكد أنه لو لم يبق شىء على حاله لما وجد الفكر شيئاً يتناوله بالبحث والدراسة والتقويم الموضوعى، ولما وجدت موضوعات للمعرفة ولا ذوات عارفة . ولكن إذا أمكن تأكيد أن « الجميل والخير والحق وكل ما

يدخل تحت هذا النوع من الأشياء والقيم» ، لها حقيقة، وأن هذه الحقيقة ثابتة، وهى على الدوام ما هى عليه، ولا تتغير كل حين حسب وجهات النظر المختلفة، فإن نظرية هراقليطس فى التغير المتجدد دوماً والصيرورة المستمرة بلا توقف، تنهار من أساسها.

ومع ذلك فإن نظرية هراقليطس صحيحة بالنسبة لكل ما يسمونه بالوجود والمادة والطبيعة لأنهم لا يعتقدون فى حقيقة إلا ما يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فى هذا العالم الذى يعيشون فيه، والذى هو مجرد عالم يمضى ويزول برغم أنهم يظنونه حقيقة راسخة لا تقبل الجدل، فى حين أن تلك الحقيقة التى يتظاهرون بإصابتها ليست إلا مظهراً عابراً . لقد أحبوا الأنغام المتوافقة، والألوان المتجانسة، والأشكال المنسجمة، وتعلقوا بالجسد وبجماله الزائل ورغباته المتغيرة وإحساساته المحدودة . وهذا كله قصور وخداع وكذب فى حقيقته . فذلك المظهر المتحول يمكن أن يصير موضوعاً لعقيدة أو لفكرة هى بدورها متغيرة على الدوام، لكنه لا يمكن أن يكون موضوعاً لعلم حقيقى يصيب كبد الحقيقة وجوهر الموجودات .

ولا ينكر أفلاطون ضرورة العلم ووجوده الذى يعتبره بالنسبة للإنسان مقدساً، كما هى حال العدالة بالنسبة للخير، لكنه يؤكد من ناحية أخرى أن له موضوعات أخرى غير الأباطيل الزائلة التى تضلل السعى الحقيقى للإنسان وراء المعرفة والحب

المثـــالى والـصـــوفـى الذى يرتـفـع فـــوق كل الماديـات . وهـذا العـلـم الميتافيزيقى له موضوعات روحية لكنها معقولة فى الوقت نفسه، لا تراها أعيننا ولا تلمسـها أيدينا ولكن تدركها أذهاننا، ونجد فيها الحقيقة الجوهرية الراسخة، والوضوح الشفاف الكامل، والجمال الثابت المطلق، التى نبحث عنها ونتوق إليها . ذلك أن الأشياء المادية المحسوسة ليست فى الحقيقة كائنات أو حقائق، فليس لها شكل ثابت ولا بناء محدد ما دامت تظهر وتختفى دون أن توجد وجوداً حقيقياً بالمرة، وبالتالى فإن معقوليتها وهم لا أساس له من الصحة . أما الجواهر المعقولة فعلى النقيض من ذلك، هى كائنات حقيقية أو حقائق كائنة، فلكل منها بنيته وصورته الثابتة المتميزة، فهى المثل التى لا تصدر عن مجرد تصورات النفس البشرية، بل هى الحقائق الخالدة التى تضىء ومضاتها دهاليز هذه النفس المعتمة وتمدها بالغذاء الروحى وتدفعها إلى الكمال الذى لا يتحقق فى عالم المادة المتغيرة والمتقلبة .

فإذا كانت الحقيقة الحقة، موضوع هذا العلم، مصوغة من مثل هذه الجواهر الروحية، فمن الطبيعى أن تكون بعيدة عن متناول الإنسان التقليدى العاجز عن تجاوز أسوار المادة وبلوغ آفاق الروح . إنها من مملكة أخرى، قدسية وفوق مستوى البشر. وهى المملكة التى شكلت عالم المثل عند أفلاطون، والتى بشر بها من موضع لآخر فى حواراته ومؤلفاته : من « فيدون » إلى «الجمهورية»، ومن «فيدروس» إلى «تيماوس» . فقد أعلن مراراً

أن الحقائق الحقة جواهر غير مادية، سرمدية قدسية، لا يمكن أن يتأملها إلا ذهن إلهى فحسب، وأن الحب الحقيقى الذى لا يرتهن بالزمان أو المكان هو الحب الإلهى المثالى، الصوفى، الميتافيزيقى الذى يستطيع الإنسان أن يدركه بالحدس والإلهام والتجلى والذهن والعقل أيضاً، بشرط أن يتخلص من كل قيود المادة التى تعوقه وتضعه تحت رحمة الاعتبارات المؤقتة العابرة .

ولم يكن أفلاطون فى مفهومه لهذا الحب المثالى رائداً أو مبتكراً، بل كان تلميذاً نجيباً لأستاذه سقراط الذى وصف هذا النوع من الحب بأنه « المعجزة التى لا يفسرها إلا الكهنة الروحيون والشعراء اللاهوتيون إذا كانوا مخلصين فى سعيهم الحميم نحو عشق الذات الإلهية . فهم يذكرون فى تعاليمهم أن الروح خالدة، وأنها لا تخرج من الحياة إلا لتدخل فيها من جديد لأنها لا تفنى على الإطلاق، وبذلك تكون قد أبصرت كل شىء سواء فى عالم الشهادة أو فى عالم الغيب، وما دامت قد وعت كل شىء سلفاً، فإن ذكرى أولية تكفيها اليوم لتبعث فيها من جديد جميع الذكريات الأخرى» . وتركز محاوره «فيدون» على أن هذه الاستعادة وذلك التذكر إنما يقتصران على الصورة والظل فحسب، أما الحقيقة عينها فلا نحصل عليها إلا إذا أصبحنا روحاً عارية من الجسد، قدسية لا تعرف الدنس الأرضى ومتحللة من كل العلاقات المادية . هذا التجرد هو جوهر الحب الإلهى نفسه وليس مجرد صورة من صوره . إنه التجرد الذى يصل إلى العلم الخالص والمعرفة التى يعجز عنها العلم المادى التقليدى .

وقد ألح هذا المفهوم على ذهن أفلاطون ابتداء من محاورة «مينون» التى تبلور فيها على شكل سؤال صارم: «كيف يمكن البحث عن المجهول؟» وهو لا يعنى مجرد تلاعب بالألفاظ، فالبحث عن شيء ما يقتضى إلماماً بسيطاً بموضوع البحث، كما يتطلب إمكان افتراض غاية للبحث محددة إلى درجة ما، وبدون ذلك لا يمكن أن نتعرف على موضوع البحث حتى لو وقفنا عليه عن طريق الصدفة. وكان تعليق سقراط على ذلك: «لن تبحث إذا كنت قد عثرت على موضوع البحث». ولذلك يرى أفلاطون أن العلم الذى منهجه البحث ما هو إلا وسيط بين العلم الذى كان لدينا من قبل والعلم الذى سنحصل عليه فيما بعد. والمعرفة الإنسانية ليست إلا انتقالاً بين نوعين من المعرفة إحداهما عالية على البشر والأخرى لاهوتية، لن يدركها الإنسان إلا إذا كان عاشقاً لها، إذ أن هذا العشق الإلهى لا يقتصر على العقل بل يشتمل على قنوات معرفية أخرى لا يمكن تحديدها أو تقنينها. والنشوة التى يحصل عليها العاشق فى هذه الحالة لا تخضع للحدود الضيقة التى تحيط بعاشق المعرفة الدنيوية وخبراتها الحسية والجنسية.

وبرغم أن أفلاطون طرد الشعراء من جمهوريته لأنهم يقتصرون فى تعاملهم مع النفس البشرية على صور المعرفة وظلال الحب، وليس مع جوهرهما، فإنه وجد فى الشعر الذى يجسد المعرفة والحب ويبلورهما، منهجاً أكثر حسماً من

التجريد الفلسفى الذى تفلت منه الحقيقة كلما ظن أنه أمسك بتلابيبها . إن قصيدة واحدة تجسد الحب خير من مقال فلسفى مسهب يحاول بلوغ كهنه بتفسيره وتحليله . ولذلك فالشعر والأسطورة أقدر على التعبير عن هاتين الحالتين من التنوير السماوى : أى نوعى المعرفة سواء العالية على البشر أو الإلهية، وكذلك أقدر على تصوير هاتين القمتين حيث تكون النفس عارية لا تجر فى أذيالها أى أثر لتلك الظلال المادية التى نسميها صوراً. إن الشاعر هنا - فى نظر أفلاطون - إنما هو فيلسوف وصاحب عقيدة . وهو عندما ينطلق مع تجلياته وأفاقه الروحية العاشقة للوجود فى كل صوره، إنما يصدر ذلك عن بحث علمى وليس عن هوى وتخبط . فهو يثبت، اعتماداً على تجربة روحية لا يجحد أثرها، واستدلال سيق فى تؤدة، الحقائق بدلاً من أن يمر عليها مر الكرام دون التعبير عنها، يبدع بخياله ما ينوب عنها ويستبدلها برموز يعرفها، ثم يجسد قيمة الإشارات التى تدل على هذه الرموز وما تحمله من افتراضات إيجابية، مع الوعى الدائم بعدم كفاية الصور لبلوغ جوهر الحقيقة، والإصرار على تحقيق الرؤية السعيدة السابقة على الحياة الراهنة، تلك الرؤية التى ترد فى صيغة التأكيد غالباً وفى صيغة الاحتمال أبداً فى محاورة «فيدون» بوجه خاص .

إن الجسد فى الواقع ليس إلا ظلمة كثيفة تحجب الحقائق المعقولة عن عقل الإنسان وروحه. والبشر هم الذين يربطون

أنفسهم بالجسد، وهذا هو التعلق الشديد برغبات الجسد وملاذ الجنس والخضوع لأوامرهما ومتطلباتهما . والواقع أن النفوس التى يتخيلها الشعراء هائمة متوجعة حول المقابر هى التى عشقت الجسد وظلت متعلقة به تعلقاً شديداً، وما التجسد إلا عقوبة ونتيجة طبيعية للشهوات الحسية. إن مجاهدة الجسد والعزوف عن الدنيا من أجل بلوغ آفاق الحب المثالى والصوفى والميتافيزيقى هو أسمى مهمة يمكن أن يقوم بها الإنسان لأنه بهذا يسعى إلى التشبه قدر المستطاع بالإله كما يقول سقراط، وهذا هو العشق الإلهى الحقيقى الذى يعرفه سقراط بأنه قدرة الإنسان أن يصير عادلاً تقياً أمام نفسه. وهو التعريف الذى ورد فى محاورة «تيتاوس» وأسهب له شروحاً فى محاورتى «فيدون» و«الجمهورية» فإذا نجح الإنسان فى أن يكون عادلاً وتقياً أمام نفسه، مقتنعاً اقتناعاً داخلياً وذاتياً بجوهر العدالة والتقوى، فإنه بهذا يبلغ أولى عتبات الحب الحقيقى .

وفى العصور الحديثة بذل الفلاسفة والمفكرون قصارى جهدهم للتمييز بين الروح العلمية والروح الصوفية بصفتهما الأداة التى تعين النفس على هذا التصاعد الطويل نحو آفاق الروح الحقيقية. لكن أفلاطون كان قد رفض مقابلة الروح العلمية بالصوفية، ووحد بينهما تحت اسم جذاب هو «الحب» وهو مفهوم أشمل وأعمق بكثير من ذلك المفهوم الرومانسى

السطحى الذى ارتبط خطأ بالحب الأفلاطونى . فعلى سبيل المثال تبدو شخصية سقراط أمام الشباب فى محاورات أفلاطون بمظهر من يجد ويسعى فى طلب الحب، لكن الجمال الذى يريد أن يعرفه وأن يعرّفه للآخرين هو جمال النفوس. فالحب لا يمكن أن يكون شيئاً جميلاً أو مثرياً أو مشعباً إذا كان جوهره هو النزوع الذى يُشعر الإنسان دائماً بالعوز والفراغ والخلو والبؤس والحاجة المتجددة . وهو كيان عجيب يقع فى منطقة وسط بين الخلود والفناء، أى بين الآلهة والبشر. إنه ابن لفوروس ملك الثراء والغنى وبينيا ملكة العوز والحاجة. ورث حياة البؤس والفقر عن أمه، وأخذ عن أبيه الجبروت والجرأة المتسلطة. ليس الحب عالماً ولا جاهلاً بل هو مجرد باحث عن العلم وفيلسوف لا يتوقف عن طلب المعرفة الكاملة. إنه القلق المتجدد والرغبة المتأججة فى قلب الإنسان الذى يدرك أن وجوده الحقيقى لا يتحقق إلا بالسعى نحو الخير الأسمى. فالكائن الفانى داخل الإنسان يريد أن يحصل على الخير أبد الآبدين. فهو يحلم بالخلود ويتمنى أن يفلت من دائرة الفناء والعدم، لكنه لن يتمكن من أن يحقق حلمه وأمنيته فى هذا العالم المادى، التافه، الدنئ، الزائل إلا بأن يستعيض عنه بشيء آخر فى حدود طاقته وإمكانه، وهو أن يستغل طاقة الحب داخله وأن ينسل ذرية من لحمه أو من روحه، ذرية تتواصل عبر الأجيال وتعمل من أجل إعلان شأن الحق والخير والجمال .

وفى محاورة «المأدبة» يتناول أفلاطون أبعاد موضوع الحب الذى يطرحه للجدل والنقاش والتحليل بين سقراط وديوتيما التى استطاعت أن تؤجل وفود الطاعون عشر سنين بفضل القربان الذى قدمه الأثينيون، وهى التى علمت سقراط صفات الحب وآثاره. يحكى سقراط لأجاثون حواره معها فيقول :

« ديوتيما : لقد سلمت بأن الحب حين يكون محروماً من الأشياء الخيرة والجميلة يشتاق إلى ما حرم منه بالذات .

سقراط : نعم سلمت بذلك .

ديوتيما : كيف يمكن إذاً لمن لا نصيب له فى الأشياء الخيرة والجميلة أن يكوت إلهاً ؟

سقراط : كلا ! إنه يبدو كذلك .

ديوتيما : عندئذ قالت : ألا ترى الآن أنك لا تعد الحب إلهاً.

سقراط : فقلت : وما عساه أن يكون ؟ أهو كائن فان ؟

ديوتيما : كلا بلا ريب .

سقراط : فما هو إذاً ؟

ديوتيما : فقالت : كالأحوال السابقة، وسط بين الفانى والخالد .

سقراط : فما هو إذاً يا ديوتيما ؟

ديوتيما : إنه روح عظيم يا سقراط، وكل ما هو من قبيل الروح فهو وسط بين الآلهة والبشر .

سقراط : وما هى وظيفته ؟

ديوتيما : هى أن يترجم للآلهة وينقل إليهم ما يصدر عن البشر، ويترجم للبشر وينقل إليهم ما يصدر عن الآلهة: صلوات البشر وقرابينهم، وأوامر الآلهة وحسن جزائها على ما قُدم من قرابين. ومن جهة أخرى حيث كانت الأرواح وسطاً بين الآلهة والبشر فإنها تملأ ما بينهما من فراغ، وتربط أطراف الكل فى واحد. وهى الوسيط لجميع النبوات، ولفنون الكهنة الخاصة بالقرابين والتلقين والرقى وجميع ضروب العرافة والسحر ومع أن الإله لا يمتزج بالإنسان فقد يمكن الاتصال والتحادث بينهما عن طريق هذا الروح، سواء فى اليقظة أو فى المنام ويسمى العارف بهذه الأمور رجلاً روحانياً، فى حين يسمى العارف بالأمور الأخرى المتصلة بالفنون أو الحرف صانعاً، وثمة أرواح كثيرة، وهى ضروب مختلفة، الحب نوع منها » .

هذا هو المفهوم المثالى والصوفى والميتافيزيقى الشامل للحب عند أفلاطون . إنه الجسر الذى يمتد ليصل ما بين الآلهة والبشر، بين السماء، والأرض، بين الخلود والفناء، بين الوجود والعدم . فليس هناك فراغ بينهما، لأن روح الحب الكونى تملأ هذا الفراغ، وما عبادة البشر للآلهة سوى أسمى آيات الحب الذى يربط أطراف الكل فى واحد. إنه البوتقة التى تنصهر فيها وحدة

الوجود كله ومنها يتألق معناها ويتبلور. والحب مراتبه عديدة وأهدافه لا نهائية حتى السمو المطلق . فأول مرتبة من مراتبه هى حب جسد جميل، لا يقتصر على الجنس بل ينتقل إلى مرحلة توليد الأفكار الجميلة المشعة من الكائن الذى اختاره المحب أو العاشق، لكن الحب فى هذه المرتبة لا يزال مكبوتاً محدوداً، فإذا ما ارتقى إلى المرتبة الأسمى فإنه يدرك أن جمال الأجساد المتنوع والمتعدد ليس إلا صورة لجمال واحد بالذات، فيحب كل شىء ويتخلص من العبودية الشخصية للفرد الواحد الذى يعوق نهوضه وارتقاءه . ولكن شتان بين هذا الجمال الجسدى وبين جمال الروح .

إن العاشق الحقيقى يصل فى رحلته عبر هذه المراتب المتتابعة إلى القدرة على تأمل الروح الجميل والتوحد معه، ورفع الابتهالات تمجيداً له، ثم يرتقى من حب النفوس إلى حب الأعمال إلى حب القوانين التى تحكم الكون . بعد ذلك يلتقى بما هو أعلى وأسمى من الحياة العملية والمادية نفسها، وهو ما يسميه أفلاطون بالعلم الشامل . ومن خلال هذا الارتقاء المتجدد والتسامى المتتابع يتخلص من عبوديته لجسد واحد أو نفس واحدة أو عمل واحد . ومن تلك القمة التى بلغها عن طريق هذا التصاعد، تستطيع بصيرته أن تلم بمحيط الجمال والحق والخير جميعاً، ويصبح قادراً على هذا التأمل العميق والشامل والثاقب مدة طويلة، تمده من الغذاء الفكرى والروحى ما يمكنه من أن

«ينشىء فلسفة متسعة الأفق فى أفكارها ومفرداتها » على حد قول أفلاطون . وهكذا تقوى بصيرته وتصبح أكثر حدة ونفاذا وقوة على تحمل ومضة الكشف الأخير .

أما ما يدركه فى هذا التنوير الفجائى فهو الجمال الواحد الأسمى، الأزلى، الأبدى، السرمدى، الذى لم يحدث له مثيل من قبل ولن يحدث، الذى لا يفنى ولا يقبل التحول ولا التبدل ولا الذبول . فليس هناك أدنى تغير فى الهيئة التى يبدو عليها، ولا اللحظة التى يظهر فيها من جماله وبهائه، ولا يتشكل طبقاً لعمر معين، أو لمزاج الذات التى تتأمله، إذ أنه خارج حدود الزمان والمكان، وهو ليس جسداً جميلاً أو وجهاً صبوحاً أو نظرات تثير الرغبة وتخلب اللب، كما أنه ليس كلمات أو أصوات أو معارف أو علوم دنيوية محدودة، وليس جمال شىء ما أو جمال كائن حى، أو جمال الأرض أو جمال السماء . إنه ليس إلا جمال نفسه، جمال فى ذاته، موجود على الدوام ومتشابه أبداً . وبالنظر إليه تصبح أنواع الجمال الأخرى مجرد ومضات عابرة، لا يضيف ظهورها أو خبوها شيئاً إلى بهائه السرمدى، ولا ينتقص منه شيئاً ولا يغير فيه شيئاً . إنه جمال بسيط، صاف، خال من الشوائب، ليس فيه شىء جسدى أو إنسانى أو مادى يغرى عينى الجسد أو يشعل الشهوات الفانية التى يحترق بها صاحبها فلا يرى أبعد من حدود كيانه المادى . إنها جمال إلهى يمنح من يتأمله ويدرك جوهره أن يتشرب الفضيلة الحقة لا أن يملأ عينيه فقط بشبح

الفضيلة أو صورتها أو ظلها فقط . إنها الجانب الخالد فى كيان الإنسان برغم الفناء الذى جبل عليه، وبالتالى فإن المعنى الحقيقى لحياة الإنسان يكمن فى هذا الجانب الخالد .

وإذا كان الجمال والخير والحق والعدل عند أفلاطون من مظاهر الوجود الحق الذى لا يمكن تصوره بدونها، فإن الحب يشكل المحور الذى يربط هذه المظاهر فى منظومة متناغمة تجسد معانى الحياة ودلالتها السامية الرفيعة . ويركز أفلاطون على أن دلالات هذا الحب المثالى الأبدى ليست هى الكيفيات العابرة للأشياء التى تحدث وتزول، كما أنها ليست التجريدات التى تقوم بها نفوسنا أو التكوينات أو الكيانات التى تؤلفها، بل هى حقيقة جوهرية عميقة، واحدة بالذات، باقية على الدوام . إنها الكمال التام المتحقق الذى لا يمكن إدراكه إلا عند بلوغ الحد الأقصى للتصاعد الأفلاطونى والذى يعنى التوحد الكامل والصوفى مع الموجود الذى يملأ كل الوجود، والذى لا يتأتى إلا من خلال الحب الكامل الذى تخلص من كل أدران المادة وقيودها الخانقة . إنها لحظة التجلى التى تعدل الزمان بأكمله .

ولم يكن تفكير أفلاطون فى وقت ما اجتماعياً خالصاً أو علمياً بحتاً أو دينياً صرفاً . ولذلك يتخذ من مفهوم الحب عنده، الواقعى والمثالى فى وقت واحد، معياراً للحياة الفردية، ونموذجاً للمدينة المثلى، وموضوعاً للمعرفة والحب . وإذا كانت الأفلاطونية فى جميع مناحيها تبدو منطقية تماماً، ولا تعرف

سوى الصرامة العقلانية والحسابات الرياضية فإنها فى حقيقتها ليست سوى حب ورغبة وشوق متصل نحو الحقيقة الكلية الكاملة التى لا يمكن إدراكها بالعقل وحده، بل بكل الإمكانات والطاقات الإدراكية الخفية والكامنة فى النفس البشرية . هذه الحقيقة الكلية الكاملة، إلهية قصية البعد، لكنها مبتغاة إلى غير نهاية ولا يعرف الإنسان المعنى الحقيقى من وجوده إلا بالاقتراب منها بالحب والوجد الصوفى . ومن هنا كان جمع الفلسفة الأفلاطونية بين الوجد والنشوة والتجلى وبين المنهج العلمى والمنطقى الصارم فى آن واحد .

والعلم المادى عند أفلاطون لا ينفصل عن العلم اللاهوتى. إن قادة الدولة بصفة خاصة يجب عليهم ألا يقفوا أو يتوقفوا عند تحصيل العلوم المادية فحسب، بل عليهم أن يدركوا العلاقات المتبادلة بين العلوم المادية والإنسانية واللاهوتية التى تشكل فيما بينها وحدة متكاملة ومتناغمة، خاصة العلاقات المرتبطة بالفضيلة والجمال والخير والحب بدلالاته المتعددة، فهذه الوحدة هى العلم الذى يتوج كل العلوم الأخرى، وهو ما يسميه أفلاطون «باللاهوتيات» . فعلى قادة الدول أن يبرزوا فى هذا العلم «إذ لا يمكن أن نعهد بحكم المدينة إلى أناس لا يعرفون كل ما يمكن معرفته عن الآلهة» . ذلك أن الجهل بمثل هذه الأمور يورث الإلحاد، وهذا بدوره يحمل على العنف وعلى الاستهانة بالقوانين فى حين أن أسمى آيات العلم تكمن فى حب الله للإنسان وبالتالى حب الإنسان لله .

وكان أفلاطون يعانى من انتشار هذا الجهل الذى يقطع الصلة الحميمة بين الإنسان وخالقه . وكان يحزنه بل ويحنقه أن يرى من الضرورة بمكان أن يثبت للشباب فى عصره وجود العناية الإلهية فى حياتهم اليومية . فقد وجد أنه لابد من القيام بهذه المهمة ما دامت هناك نظريات تدعى أنها نظريات علمية، أشاعت الإلحاد عندما ادعت أن العالم ليس نتيجة لعقل إلهى بل من صنع الطبيعة والصدفة فحسب . هاجم أفلاطون هذا الإلحاد بقوة وصرامة فى محاورة « السفسطائى »، كما ذكر فى محاورة فيليبوس « إن نفساً عالية وعقلاً سامياً يدير نظام هذا العالم » . بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما صور أبعاد الحب الإلهى فى محاورة « تيماوس » التى سرد فيها تصوره لقصة حدوث هذا العالم الذى هو من صنع الله غير المرئى . ولو كان الله لا يحب الإنسان لما خلق له هذا العالم البديع . إن الله خير ولما كان منزهاً عن الحسد، أراد أن يكون كل شىء على صورته إلى أقصى حد . فتناول المادة وهى فوضى بالغة وظلمة مضطربة، وهذا ما جبلت عليه، فنفخ فيها العقل والغائية، وجعل منها نظاماً وعالماً، وهو أحسن نظام وأكمل عالم للإنسان .

ومحاورة « تيماوس » محاورة علمية، يصحح فيها أفلاطون توجهات العلم المادى فى زمانه ليفيد منه فى تفسيره للكون والإنسان بصفة عامة ولنظريته فى الحب الإلهى بصفة خاصة . فرفض اتباع الفلسفات الكونية القديمة التى تجعل أصل

الأشياء مبدأ أعمى غير واع، وتدعى بسبق السماء والأرض فى الوجود قبل الآلهة، ونادى أولاً بعلة عليا وهى الله الذى أحب الإنسان وخلق من أجله النفس التى تتصور النظام الأمثل فتفرضه على المادة . . وكان أفلاطون رائداً فى تصوره لله بصفته الكائن المطلق والعقل الكامل والخير الشامل فى آن واحد . فالعالم فى نظره كيان إلهى « لأن الله يحل فيه » على حد قوله . وهذا الحضور الإلهى فى كل الوجود هو النظام الذى أوجده عقله المبدع للكون، والحب الذى يكنه لمخلوقاته من البشر الذين يجب عليهم بدورهم أن يبادلوه حباً بحب، ذلك أن وجود الله يعنى النظام والمعنى والتناغم والحب والحق والقضاء على أية احتمالات للفوضى والشتات وضياع الإنسان . وخلق الله للإنسان ليس سوى أسمى آيات الحب له، وإرادة الله نحو البشر ليست سوى تجسيد لحبه لهم، فلم يرد أن يجعلهم هم والعدم والفناء والهباء سواء . ولذلك فحياة الملحد هى فى حقيقتها العدم بعينه .

والإيمان بالله عند أفلاطون ليس مجرد مظهر، وليس ادعاء المصلح السياسى وتظاهره حين يخدع الشعب ويلقنه صيغاً كاذبة ومزيفة بحجة أنها مفيدة اجتماعياً وإنسانياً، ومباركة من الآلهة . ذلك أن لسان هذا السياسى ينضح بالإيمان والصدق فى حين تبدو حقيقة أعماله وتصرفاته مناقضة تماماً لشعاراته وادعاءاته . فأفلاطون يؤمن بالله إيمانه بحقيقة جوهرية، وعدالة أبدية، ومحبة غامرة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتناقص . وهو يؤمن

أيضاً بأن المعتقدات الدينية واللاهوتية هى بمثابة ضرورات اجتماعية وإنسانية بالنسبة للحياة المادية على الأرض، ولذلك لم يقنع بالدعوة فحسب بل أخذ يفرضها فرضاً . ففى المدينة التى تصفها محاورة « القوانين » ، يعتبر عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة وفى حبهم للبشر، وفى عنايتهم بهم، وفى عدالتهم نحوهم، وفى نظامهم الذى لا يخطئ فى حق أحد، ضرباً من الإجرام فى حق الدولة . ويمكن أن يحكم على المذنب بالسجن أو الإعدام أو النفى المؤبد تبعاً لشناعة الإثم الذى يقترفه .

ولكن أفلاطون يرى أن روح الحب المثالى تترفق بغير المؤمنين الذين حسنت نياتهم، وسلمت طويتهم، وكانت لهم قلوب لا تعرف الزيغ ولا تقرب الظلم، وكذلك بالسذج والجهلاء الذين لم تشرق عليهم شمس المعرفة والعلم والإدراك الواعى. لكن هذا الحب أو العفو لا يمنح للمخادعين الذين يتظاهرون بالتدين والإيمان، وكذلك السياسيين الأفاقين والدجالين والسفسطائيين والطغاة والظالمين . ويؤكد أفلاطون على أن القوة عاجزة عن أن تفرض الحقيقة إذا لم يعاونها الحب الذى يؤدى إلى الاقتناع بتحويلها إلى طاقة للخير والحق والجمال. وهو يوقف الكتاب العاشر من محاورة «القوانين» على النصح والإقناع والحب الذى تبديه الآلهة نحو البشر. وهو لا يتحدث عن الآلهة بقدر ما يتحدث عن إله واحد، ويسوق براهين فى متناول الجميع، كبراهين نظام العالم أو الكون الواحد وإجماع العالمين . فالحياة

كلها تنهض على أساس أن كل حركة تفترض وجود محرك، وتفترض سلسلة الحركات بأجمعها محركاً أعلى . وهذا المحرك لا يتلقى حركته من شيء آخر، فهو الذى يهب نفسه الحركة . ولما كان كائن أزلى وأبدى واحد هو الذى يستطيع أن يحرك نفسه بنفسه، فهو مبدأ لحياة نفسه ومبدأ لتنفس نفسه، وبالتالى هناك نفس تتولى حركات السماء كما يقول أفلاطون، وهى خيرة، جميلة، حقة، وقدسية، وتشمل بحبها كل شيء، وتنظم كل صغيرة وكبيرة فى العالم المادى وفى العالم الأخلاقى فى سبيل الخير العام للبشرية جمعاء .

ويفسر أفلاطون المحن والمآسى والكوارث والشرور التى تقع فيها البشرية وتلازمها بصفة دائمة، بأن هناك صراعاً أبدياً بين الخير والشر، وغالباً ما يظهر الشر بمظهر المنتصر فى هذه الدنيا، لكن الآلهة يتحالفون فى هذا الصراع الذى يحتاج إلى يقظة حادة ودائمة على حد قول أفلاطون الذى يؤكد أنه «ليس إلى حب الله من سبيل سوى العمل بكل ما فينا من قوة كى نتشبه به» . والعقل الذى منحه الله للإنسان هو أكبر دليل على حبه الإلهى له، فبه يدرك هذا الحب، ويستطيع أن يسير على نهجه، بحيث يتحول الوجود كله إلى بوتقة من الحب الخالص الذى ينطلق إلى آفاق لا يدركها العالم المادى .

إن العقل البشرى هو قبس من نور الله، وبدونه تتلاشى الحدود بين الإنسان والحيوان، ويصبح الثواب والعقاب، والخير

والشـر، والحق والباطـل، مـبـادئ لا عـلاقـة لهـا بالحـيـاة الإنسـانيـة. فـالقـوانـين التى يمليهـا علينا العـقل لنتـبـعـهـا فى حيـاتـنا العـامـة والخاصـة على حـد سـواء، تقـتـدى بالقـوانين الإلهـيـة، وتنحـو مـثلهـا نحـو نشـر النظـام والحب والعـدالة فى كل مكان، شـاخـصـة إلى الخـيـر الأسـمى عـلى الدوام . وطاعـة هـذه القـوانين هـى القـاعـدة الوحـيدة المأمـونة سـواء بالنسبـة للفـرد فى سلوكه اليومى فى الحيـاة أو بالنسبة لأولى الأمر فى حكم المدينة. فـالله وحـده هـو الذى ينصـب الميـزان المقـسط للأشـيـاء، بكل الحق والحب والعدالة. ولذلك يكرر أفلاطون فى كتابه الأخير «القوانين» الذى يعـتـبـر دسـتـوراً للمـفكر ورجل الدولة فى آن واحـد، ذكـر القـاعـدة التى تلخص مناحى تـفكيـره الأسـاسـيـة وهـى «اتبع الله؛ اقـتـد بالله» ، ولابـد من تسـجـيل هـذه الريادة الفكرية والروحـيـة والدينية لأفلاطون الذى عاش فى عـصـر وثنى بمعنى الكلمة، لكنه بفـكره الثـاقب وبـصـيـرتـه التى تجـاوزت الماديـات والمرئيـات والملمـوسـات، تمكن من التـعـبيـر عن حـضـرة الله الشـاملة، وعن فـعل الله غـيـر المرئى بحـيث وصـف الله فى فلسـفـتـه بأنه حـقاً « البـداية والوسـط والنهـاية » . وبهـذا يثـبت أفـلاطـون نظريتـه بأسلـوب عـملـى، فـهـو لم يدرك هـذه الحـقـائق الميـتـافـيـزيـقـيـة والروحـية إلا بالهبـة التى منحـهـا الله إياه، وهى العـقل، ولو وظف الناس العاديون والتـقليديون عقـولهم بنفس الأسلـوب لوصلـوا إلى النتائج نفسـها .

وكانت أدوات العقل عند أفلاطون هى الحوار مثل أستاذه سقراط، وكذلك التحليل والتصنيف والتركيب . ففى الوقت الذى كتب فيه محاورة «المأدبة»، كان يجتمع بعباقرة الفن ورجال العلم والنابهين من شباب اليونان ليستمعوا إليه فى دروس الأكاديمية وهو يفسر سر مولد العقل من نبع الحب، وامتد تفسيره ليشتمل على الموضوعات الخاصة بالمثل، والنفس، والفضيلة، والوحدة، والتعدد، واللذة، والألم، والنظام، والدولة . وأثبت بالمنطق أن حب المعرفة يعد من أسمى أنواع الحب، بل هو الفضيلة نفسها . إن فضيلة النفس هى المعرفة، أى انعكاس النفس على ذاتها لكشف هذه المبادئ الأولى التى تهديها، وتنير لها السبيل، وتأخذ بيدها فى طريق الحق . ولذلك فإن سائر الفضائل الأخرى التى يتعارف الناس عليها إنما تستمد من هذه الفضيلة بالذات . مثال ذلك الشجاعة، فإن الرجل الجرئ المقدام بغير توجيه العقل يؤذى نفسه، وإذا أقدم بحكمة ظفر بكثير من الفوائد والمكاسب . وهى الحقيقة التى يؤكدها أفلاطون فى محاورة « مينون » التى تدور حول العقل كأساس لسائر الفضائل التى يتعارف الناس عليها .

والجسد وشهواته وما فيه من حواس - وحتى البصر وهو أرفعها - يعوق الإنسان عن بلوغ الحقيقة المثالية غير المرئية . والفيلسوف الحقيقى عند أفلاطون هو الذى يدرك عوائق الجسد، ويرى أن النفس لن تصل إلى الحق إلا إذا انفصلت تمام الانفصال

عن الجسد . والحياة الفلسفية، وهى التفكير والبحث العلمى، ضرب مستمر من تصفية النفس وتطهيرها، والدأب على البحث والدرس حتى تبلغ النفس نهاية استقلالها . عندئذ تتصل النفس اتصالاً مباشراً بالحقيقة . وانتصار العقل فى الصراع بين الشهوة وبين طلب الأفضل هو ما يسميه أفلاطون بالحكمة العملية . والحب الجنسى نوع من الشهوة الجارفة التى تسمى شبقاً وهذا المحب عبد للذاته وتحت رحمتها، ولذلك فهو لا يحتمل الحكمة ولا يعبأ بالكرامة ولا يعرف قيمة الأحاسيس الروحية وغير ذلك مما يهبه استقلالاً فى الشخصية قد يحول بينه وبين الحصول على رغباته . والمحب الذى لا يرى فى الحب سوى شهوة جنسية عارمة هو فى حالة دائمة ومتجددة من الجنون فى حين يفضل أفلاطون أن يحتفظ الإنسان بعقله من أن يكون مجنوناً . ولكن الجنون أنواع، منه الكهانة، والعرافة، وإلهام الشعراء، وجنون الحب . أما الحب المثالى أو الصوفى أو الفلسفى الذى امتدحته ديوتيما فى محاورة «المأدبة»، فقد يبدو فى تجليه ونشوته ووجده الصوفى نوعاً من الجنون، لكنه فى حقيقته هبة من الآلهة، ويقتضى معرفة بطبيعة النفس، سواء الروحية أو الدنيوية.

وكانت نظرية أفلاطون فى الحب من الشمول بحيث أصبحت أساساً للفلسفة ابتداء من العصور القديمة وحتى العصور الوسطى . فهى تنادى بأن الأشياء الخارجية هى الأصل

الذى نعتمد عليه فى المعرفة، لكنها ليست الأشياء المادية المحسوسة بل المثل المتعالية عليها . ولذلك فالحب المثالى أسمى بكثير من الحب الجسدى، وإن كان يحتاج إلى قدرات روحية وصوفية لا يملكها الكثيرون . إنه تدريب متواصل ومتصاعد للروح كى تخترق حجب الحياة المادية لترى ما وراءها . فالحب الحقيقى شوق إلى كل شىء مثالى، إلى الجمال والحق والخير على حد سواء . وإذا كانت مفاهيم كل من فيدروس وبوزانياس وأريستوفانيس وأجاثون عن الحب - كما وردت فى محاورة «المأدبة» - قد وقفت عند حدود جانبه الجسدى ونتائجه الاجتماعية، فإن أفلاطون أضاف إلى تفسير الحب عدة أمور جديدة، الأول أنه شوق، والثانى أنه توليد، والثالث أن هذا التوليد جسدى، والرابع أنه روحى .

فالحب شوق لأنه لا يملك الجمال فى حد ذاته، وإنما الجمال يتأتى من تفاعله مع الآخر، وهو ليس محباً فقط أو محبوباً فقط، إذ لابد له من الجمع بين الطرفين . إنه الطاقة أو الرغبة التى تدفع المحب إلى طلب المحبوب، أى أنه لا يتحقق إلا من خلال هذا التواصل أو التفاعل . ولذلك فهو توليد أيضاً لأن الشوق إلى المحبوب الجميل لا يكون لذاته، بل لشىء أعمق من ذلك وأبقى وأخلد، هو استمرار الجنس وحفظ النسل . فالرغبة الجنسية هى السبيل إلى مشاركة الكائن الفانى فى الأزلى الباقى، ولا سبيل إلى الاتصال بالجنس الآخر إلا بالحب . وإذا كان

الحيوان يشارك الإنسان فى القدرة على التوليد واستمرار الحياة، فإن الإنسان يتميز بأنه جسد وروح، ومن أحب الروح تعلق بالحكمة وغيرها من المثل والفضائل، وعمل على توليدها وانتشارها. ويوضح أفلاطون أن أسمى ضروب الحكمة هو «ما حفظ نظام المجتمع بالعدل والاعتدال» .

ويبدأ الطريق إلى الأمور الروحية والمثل العليا بالتعلق بجمال الجسد، فيعشق الإنسان فرداً واحداً، ثم ينظر فى الأجسام الأخرى الجميلة، ويوازن بينها حتى يبلغ جمال الصورة المثلى، فيصبح محباً لكل جسم جميل . لكنه فى تصاعده إلى عالم المثل يدرك أن جمال الأجسام لا يساوى شيئاً إلى جانب جمال النفوس . وقد توجد النفس الجميلة فى الجسم القبيح، ولاغرابة أن يعشقها لما فيها من جمال، فقد انتقل من جمال المظهر إلى جمال الجوهر . ثم يقوده الكشف عن جمال النفس إلى تأمل جمال النظم والقوانين، ثم يرتفع من تلك المرتبة إلى محبة العلوم ومعرفة جمال كل نوع منها، حتى يبلغ مرحلة العلم بالجمال بالذات . أى أن الحب هو القوة التى تأخذ بيد المحب منذ الصبا وترفعه من الإعجاب بالجمال الجسدى الذى يلهمه الأفكار والأحاسيس والأقاويل الجميلة، إلى جمال النفوس حتى لو كانت مودعة فى جسد قبيح، إلى جمال القوانين وجمال العلوم حتى يبلغ مثال الجمال بالذات . وهذا الطريق هو الذى يسميه أفلاطون

الجدل الصاعد، الجدل الذى يصعد بالنفس، ويدفعها إلى تسيير كل شىء فى الحياة .

وهذا الجمال الحقيقى لا يُدرك بالبصر أو الرؤية العينية ولكن بالبصيرة والرؤيا الحدسية، فهو لا يتخذ أية هيئة مادية كالوجه أو الجسد، ولا هيئة لفظية أو شكل أى كائن يوجد على هذه الأرض . إنه جمال يقوم بذاته ولذاته، وكل شىء آخر جميل يشارك فيه . هذا الجمال الأزلى الثابت، متى بلغه الإنسان فلن يغريه بريق الذهب، أو يجتذبه سحر الوجوه الجميلة ، بل يظل محدقاً فى هذا الجمال ومنتشياً بعشقه له على الدوام . فالحياة الصحيحة للإنسان هى أن «يعيش متأملا الجمال الوحيد بالذات»، وذلك عن طريق الرؤية المباشرة لهذا الجمال، وليست هذه الرؤية أو الرؤيا ثمرة استدلال ونتيجة مقدمات، وإنما هى أشبه بالكشف الصوفى عن طريق الاتصال المباشر بالحقيقة العليا ولا تتحقق هذه الرؤيا إلا بعد أن تتحول النفس بكليتها وتتجه نحو مثال الجمال أو الخير أو الحق، مدفوعة بقوة الحب إلى كل منها، تماماً كما يتجه الإنسان ببصره نحو المحسوسات ليراها . ووظيفة الفلسفة أن تنتقل بالنفس من مرحلة التعلق بالمحسوسات إلى مرحلة المعقولات المثالية حتى تتحقق الرؤيا .

إن الحب هو السبيل الذى يجعلنا نشتاق إلى المحبوب من أى نوع كان، فنتعلق به، ونعشقه . وأول مدخل لهذا العالم الرائع المثير هو الأشياء الجميلة، والأجسام الفاتنة، والوجوه الساحرة،

ثم النظم والقوانين التي تمتاز بما فيها من نظام وجمال، ويلي ذلك العلوم المختلفة التي تتصف بالجمال الثابت حتى تبلغ الجمال بالذات، والحق بالذات، والخير بالذات . وهذه كلها آفاق عليا سماوية تعز على التعبير الإنساني، لأن الوقوف عندها والارتباط بها والسير على هديها بصفة دائمة ومتجددة، يجعل الإنسان حكيماً، أي محباً للحكمة أي فيلسوفاً، يسعى إليها، ويشقى في البحث عنها حتى يدنو من ضيائها، لكنها لا تنكشف للنفس تمام الانكشاف إلا بعد أن تتخلص النفس من الجسد . وهو المفهوم الذي أبرزه سقراط في محاورة « فيدون » . إن أصحاب الأنفس التي بلغت هذه المرتبة العلوية، واطلعت أكثر من غيرها على الحقائق وأبصرتها، يصبحون فلاسفة - أي محبين للحكمة - ومحبين للجمال، ومحبين للخير، ومحبين للحق، ومحبين للموسيقى الرفيعة، وكل الأشياء الرائعة في هذا الوجود .

وقد ظل أفلاطون إلى آخر حياته معتنقاً نظرية المثل باعتبارها الحقائق الوحيدة في هذا الوجود، وأن المحسوسات مجرد مظاهر لها . ولم يستطع أن يحل مشكلة الصلة بين المثال المعقول وبين المحسوسات المتغيرة التي لا تحصى، وذلك بعد أن ميز بين العالمين وفصل بين المعقول والمحسوس . ثم أخذ يبين أصناف المثل التي تسكن العالم المعقول، فرتبها في أنواع وأجناس بعضها فوق بعض، من حيث مرتبتها في الوجود، وأسمى مرتبة للمثال هي تلك التي تصل بالإنسان إلى الحب الحقيقي لله؛

والتى يسميها أفلاطون مرتبة الموجود الكامل أو الكلى الوجود . وهى المثل التى يتخذها مقياساً يفسر به وجود الموجودات .

وكان مفهوم أفلاطون للحب المثالى والصوفى والميتافيزيقى هو سلاحه المشهر فى وجه الإلحاد الذى صدر عن مادية الطبيعيين، ونسبية السفسطائيين . فهم يرون أن العالم بجميع ما فيه، حتى الأنفس عبارة عن حركات غير عاقلة للعناصر المادية، ورد سقراط ثم أفلاطون عليهم بأن مرجع كل حركة إلى النفس التى تعمل بتدبير وتسعى إلى غاية، والعالم مملوء بالنفس التى هى خيرة بطبيعتها، وتستمد الأنفس ما فيها من خير من النفس الكاملة الخير، النفس الأولى . أما السفسطائيون فيعدون الإنسان مقياس الأشياء جميعاً، وينكرون الحقائق المطلقة، ويذهبون إلى أن الدين والأخلاق ثمرة العرف، ويزعمون أن القوة فوق الحق، وأن الفن والقانون لا يعتمدان على أصل فى الطبيعة . وقد اتهم أفلاطون هذا التوجه بأنه أصل الإلحاد الذى يؤدى إلى فساد الشباب وخراب الأسر والمدن كما جاء فى محاورة « القوانين » .

من هنا كان إصرار أفلاطون فى معظم محاوراته على أن هذا الكون من صنع إله كامل، يملك العلم بكل شىء، والإحاطة بكل شىء، وقد أودع فى الإنسان النفس، وبث فى النفس العقل الذى يميز بين الحسن والقبيح، وعلى الإنسان أن يحكم عقله، ويؤثر السداد، ويصفى النفس بالنظر والمعرفة، فيتجنب بذلك الشر ويفعل الخير . فمحبة الله موجودة حين وهب الإنسان

العقل، ومن طبيعة العقل الحرية لتتم وظيفته من الاختيار وتفعيل الإرادة الإنسانية . وهذا يعنى أن أفلاطون - بمفهوم عصره - كان مصلحاً دينياً، صفى الديانة التى كانت سائدة من البدع والخرافات، وهاجم بشدة المخازى التى ترتكب باسم الدين، وآمن بوجود الله، وخلقه للعالم، وحبه له وعنايته به على أسس فلسفية وميتافيزيقية، وأوجب وجود الدين فى الدولة، وأمر باتباع تعاليمه وإقامة الشعائر واحترامها، وذلك فى زمن كانت الوثنية هى المذهب السائد . إن الله عنده هو الموجود الكامل، بل إنه فى محاورة « القوانين » يصر على أنه « يجب ألا نجعل الإله الأسمى موضوعاً للبحث لأن ذلك يعد من الضلال والفجور »، ويكفى اتخاذ دليل النظام ودليل الحركة اللذين يميزان الكون، أعظم إثبات لوجوده .

لذلك كانت معرفة الله واجبة، وعبادته مفروضة على كل إنسان ولن يعرفه العقل الإنسانى حق المعرفة إلا إذا تدرب على البحث والعلم، بحيث يرتقى من مرحلة الظن إلى العلم إلى الجدل، ويتعلم النظام والدلالة والمعنى . عندئذ يدرك أن الله هو الحب الخالص، والحق الأسمى، والجمال المطلق، والخير المحض الذى يهتدى الإنسان بنوره إلى معرفة نفسه ومعرفة الحق، وأن الله هو « مقياس الموجودات جميعاً »، فيعلم أنه هو النموذج الذى يجب أن تحتذى المدينة مثاله . وإذا كان الفيلسوف الحق هو الذى

يسعى للتشبه بالإله سواء فى سلوكه الفردى أو الاجتماعى، بقدر الطاقة الإنسانية، فالمدينة الفاضلة هى محاكاة لعالم السماء أى عالم المثل العليا .

وهذه المدينة لابد أن تخضع للقانون الذى يحقق النظام لذلك يجب ألا يكون الحاكم هو أغنى رجل أو أقوى شخص، بل أكثر الناس طاعة للقانون . وهذا الحاكم الخاضع للقانون هو خادم الله المطيع فى الأرض، لأن الله الذى يمسك بيده بدء جميع الموجودات ووسطها ونهايتها، يقودها إلى غاية طبقاً للعدل الأزلى والقانون الأبدى والحب الإلهى . والسعيد هو من يعرف كيف يعتصم بحبل الله، ويتمسك بعدله، ويسير على هدى حبه، محتذياً مثاله فى طاعة وخضوع . والشقى هو من يفتنه غرور النفس، أو تسحره الثروة أو الجنس أو المنزلة الاجتماعية، ويعتقد أنه فى غير حاجة إلى مرشد أمين . والله هو مقياس الأشياء جميعاً، ومن يسير فى الحياة على نوره، ويخضع حياته لمقياسه لا لمقياس الإنسان، كان أقرب إليه فى صفات العدل والخير والحق والحب .

إن أهداف المذهب الأفلاطونى كانت من الشمول والعمق بحيث جمعت بين دقة المنهج وآفاق الروح، وذلك برغم التناقض الذى وقعت فيه . فهى لم تكن فوق النقد والتصحيح، لأن أفلاطون كان يعتبر أن كل علم إنسانى وكل كمال إنسانى مرتبة لم تصل إلى حد الاكتمال . وكان مفهومه للحب المثالى

والميتافيزيقى والصوفى، بحثاً نحو مثل أعلى هو على الدوام غير متناه فى السمو على ما يحققه الحاضر . ويعرف هو نفسه بأنها حب لا يعرف الارتواء، كلما زاد امتلاكه ازدادت رغبته . وهكذا يظل قابلاً للتقدم المتواصل لأنه يجعل من السماء منزلاً للحقيقة العليا، ومحلاً للخير الأسمى، وموطناً للحب الإلهى .

** ** **

فصول الكتاب

صفحة

